الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٠٢ — ١٧ يونيو سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3me Année, No. 102.

Lundi-17-6-1935

بدل الاشتراك عن سنة

م

٦٠ في مصر والسودان

٨٠ في الأقطار العربية

١٠٠ في سائر الممالك الأخرى

١٢٠ في العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولي رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٠٢ « القاهرة في يوم الاثنين ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٥٤ — ١٧ يونيو سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العـــدد

صـــيف الأديب

زفرت جهنم زفرتها السنوية كما تزعم الأساطير ، فعقدت على وجهي (الوادي) غشاء من سَموم ودَخَن ؛ فالطبيعة في غلافها الناري مكبوتة ، والأرض من حُمَّاها الصالب مسبوتة ، والناس من إلحاح القيظ متبلِّدون هامدون يقابلون لفحه بجَلَد المضطر ، ويعالجون بَرْحه بصبر الشهيد ! ولكن الجَلَد يماع فهو عَرَق يتقطر ، والصبر يرفَضُّ فهو بخار يتصعد ، وبين هذا التقطير وذلك التصعيد نفس تذوب ، وجسم يذبل ، وعزم ينسرق ، وفكر يضمحل ؛ فليت شعري ماذا عسى أن يعمل من اضطر إلى أن يعمل ؟ هذا مكتب الأديب الصحفي يشع الوهج كأتون الفرن ، وينفث الضيق كحجرة السجن ، ويبعث القلق كغرفة الانتظار ؛ وهو مع ذلك مقضيٌّ عليه أن يفكر ويعبّر ، ويرتب ويهذب ، ويقابل ويجادل ، حتى يهن عصبه ، وينقطع سببه ، فيعود إلى منزله المعلق في الجو الأغبر على زحمة الشارع وضوضاء العامة ، يطلب الهدوء فلا يجده ، ويلتمس النوم فلا يناله !

ليس له وا أسفاه قصر يبسم بالنعيم ، وينسم بالعطر ، ويشرق

بالجمال ، ويموج بالزهر ، ويتعارّى بالماء ، ويتمطى فى الظل ، ويتبسط فى السعة ، ويسجو فى الخفض ، ويَغرق فى السكون ، ويضرب حواليه نطاقاً سحرياً من الأحلام واللذة ، فيعوذ به من وقدة الجو ، ويلوذ به من مشقة العمل

وليس له وا أسفاه مال يعبر عليه ثبج البحر ، ويَرِد به مدن الماء ، ويبلغ فوقه قرى الجبل ، فيسرّى عن نفسه بعض عناء العام وبلاء الأيام بما يرى من مفاتن الطبيعة على الربى ، ومجالى الفردوس فوق السهول ، ومباهج المدنية على الشواطئ

وليس له وا أسفاه ما للأديب الموظف من المؤتمرات العلمية ، والسياحات التعليمية ، يغشاها فى منازه أوربا ، أو خمائل لبنان ، فينال من زهرة الدنيا ومُتعة العيش على حساب الدولة وعلى حب العلم

* * *

الطالب يعود فى العطلة الى الريف ، والموظف الصغير يذهب فى الأجازة الى المصيف ، والموظف الكبير يجد من مرتبه فضلا يشترى به السياحة والراحة والبهجة ، والموظف الأكبر يُجشّم نفسه الكبرى (خدمة) للحكومة فى (الخارج) ، فيؤديها على أتمها نائماً فوق صدور الأمانى ، حالماً على هدهدة الأغانى ، هائماً وراء الخدمة المنشودة فى أودية الشعر والسحر ، ثم لا يكلف الخزينة العامرة إلا بضع مئات لمكافأته ، وبضع كلمات لشكره ؛ والكبراء الذين يعيشون علينا ، ولا ينتسبون إلينا ، يجمعون دم الفلاح الغالى فى حقاق من ذهب ، ويلفون لحمه اللذيذ فى حقائب من حرير ، ثم يرحلون بهما إلى أسواق ابليس ، فى (مونت كارلو) و (نيس) ، فيشترون بهما أبهة أشهر ، وعربدة أسابيع ، ومخازى عُمْر !

إذن لا يبقى لسعير الصيف إلا الطبقة التى تنسج لهؤلاء جميعاً بُرْد السعادة : طبقة العمل الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يجدى على أهله إلا قوت يوم بيوم : طبقة الموظف الأصغر ، والصانع المستذَلّ ، والعامل المستغَلّ ، والفلاح المهمَل ، والتاجر المدين ، والأديب المسكين ، فهم يعملون فى عطلة الناس — وأجرهم على الله — حتى لا تسكن الدنيا ، وحتى لا يقف الفلك ! !

* * *

أنشأت الأمة مصايف لأطفال الفقراء ، وأعدت الدولة قطار (البحر) وقطار (النزهة) لانصاف الأغنياء ، فماذا أنشأت الأمة أو أعدت الدولة لمساكين الأدباء ؟ أليسوا رسل الحق والخير والجمال والمعرفة إلى من زهتهم السطوة فلجوا فى الباطل ، وأعمتهم الشهوة فتدفقوا فى الشر ، ولوثهم الطمع فاطمأنوا إلى القبح ، وركبهم الغرور فجنحوا للجهالة ؟ أليسوا أحرياء بأن تقيم لهم الحكومة (جبل البرْناس) على بقعة من ضفاف النيل ، أو على رقعة من شواطئ البحر ، يستجمون عليه من الاعياء ، ويتصلون فيه بالسماء ، وينشدون الأمة من روائع الوحى أجمل مما أنشدته (الموز) التسع آلهات الآداب والفنون ، على قيثارة إله الشعر والبلاغة أبولون . . .

ولكن رويدك يا أشعب ! ! إن الحكومة التى لا تشترك فى مجلة الضحى إلا بعد طلب ورجاء ، ولا تشترى نسخاً من كتاب الأديب إلا بعد أخذ وعطاء ، يشق عليها أن تقيم (جبل البرناس) ، على مثل هذا الأساس !

* * *

على أن الخيال عالم والحقيقة عالم آخر ، والأديب حريص على ألا يسبح فى عالمه غيره ، فلماذا يمد عينيه الرغيبتين الى عالم الناس ؟

إن فى ليالى القاهرة الساحرة الرخية لرضى للنفس الشاعرة : سماء كصفحة الأمل المشرق تتألق بالأنوار ، وفضاء كغيب الله يموج بالأفكار والأسرار ، ونسيم كأجنحة الأملاك يذهب عن الأجسام رهق النهار ، وجنات الجزيرة ، وخلوات الجيزة ، ومسرات الجسر ، ومسارح النيل ، تخلق فى الذهن الخصيب والشعور الفتان ، ما لا تخلقه جنات سويسرا ولا رياض لبنان !

احمد حسن الزيات

الطائشـــة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال صاحبُها وهو يُحدِّثني من حديثها :

كانت فتاةً متعلِّمةً حلوةَ المنظر، حُلوةَ الكلام، رقيقةَ العاطفة، مرْهَفَةَ الحسّ، في لسانها بيانٌ، ولوجهها بيانٌ غيرُ الذي في لسانها تَعرف فيه الكلامَ الذي لا تتكلم به . . .

ولها طبعٌ شديدُ الطَّرَبِ للحياة، مُسْتَرسِلٌ في مَرَحه خفيفٌ طيَّاشٌ، لو أثقلْتَه بجَبَلٍ لخفَّ بالجبل؛ تَحسبُها دائماً سَكْرَى تمايلُ من طربها، كأن أفكارَها المرِحةَ هي في رأسها أفكارٌ وفي دمِها خَمْر . . . .

وكان هذا الطبعُ السكرانُ شباباً وجمالاً وطرَباً — يعمل عملين متناقضين، فهو دلالٌ مُتراجعٌ منهزم، وهو أيضاً جُرْأَةٌ مُندفعةٌ متهجِّمة. وهزيمةُ الدلال في المرأة إنْ هي إلا عَمَلٌ حَرْبيٌّ مُضْمَرةٌ فيه الكَرَّةُ والهجوم؛ وكثيراً ما ترى فيها النظرةَ ذاتَ المنيَين: نظرةٌ واحدةٌ تؤنِّبك بها المرأةُ على جَراءتك معها، وتَعذِلك بها أيضاً على أنك لستَ معها أجرأَ مما أنت . . . !

* * *

قلتُ: ويحكَ يا هذا! أتعرفُ ما تقول؟

قال: فمن يعرفُ ما يقول إذا أنا لم أعرف؟ لقد أحببتُ خمسَ عشرة فتاة، بل هُنَّ أحببنني وفرَّغْنَ قلوبهن لي، ما اعتزَّتْ عليَّ منهن واحدة، وقد ذهبن بي مذهباً ولكني ذهبتُ بهن خمسةَ عَشَر !

قلت: فلا ريبَ أنك تحملُ الوسامَ الابليسيَّ الأوَّل من رتبة الجمرة . . . . . فكيف استهام بك خمسَ عشرةَ فتاة، أجاهلاتٌ هنّ، أَعَمْياواتٌ هن . . . ؟

قال: بل متعلمات مُبصراتٌ يَرينَ ويُدركن، ولا تخطئ واحدةٌ منهن في فهم أن رجلاً وامرأةً قصَّةُ حُبٍّ . . . . .

وما خمسَ عشرةَ فتاة؟ وما عشرون وثلاثون من فتيات هـذا الزمن البائر، الذي كسد فيه الزواجُ، ورقَّ فيه الدين، والتهبت العاطفة، وكثرتْ فنونُ الاغراء، واصطلح فيه إبليسُ والعلمُ يعملان معاً . . ؛ وأُطلِقتِ الحرِّيةُ للمرأة، وتوسعتْ المدارسُ فيما تقدّم للفتيات، وأظهرتْ من الحفاوة بهن أمراً مُفْرِطاً حتى أخذن رُبع العلم . . . ؟

قلت: وثلاثةُ أرباعِ العلم الباقية؟

قال: يأخذنها من الروايات والسيما. علْمُ المدارس، ما عِلمُ المدارس؟ إنهن لا يصنعن به شيئاً إلا شهاداتٍ هي مكافأةُ الحفظ وإجازةُ النسيان من بَعد؛ أما علمُ السيما والروايات فيصنعن به تاريخهن .. ورُبَّ منظرٍ يشهده في السيما ألفُ فتاة بمرّةٍ واحدة، فاذا استقرَّ في وَعيهن وطافت به الخواطرُ والأحلام — سُلبهنَّ القرارَ والوقارَ فمثَّلْنه ألفَ مرةٍ بألف طريقةٍ في ألف حادثة!

يظنون أننا في زمنِ إزاحةِ العقَبات النسائية واحدةً بعد واحدة، من حرية المرأة وعلمها؛ أما أنا فأرى حريةَ المرأة وعلمها لا يوجدان إلا العقباتِ النسائية عَقَبَةً بعد عقبة. وقد كان عيبُ الجاهلةِ المقصورةِ في دارها أن الرجل يحتالُ عليها، فصار عيبُ المتعلِّمةِ المفتوح لها البابُ أنها هي تحتالُ على الرجل؛ فمرةً بابداع الحيلة عليه، ومرة بتلقينه الحيلةَ عليها. والغريب في أمر هـذا العلم أنه هو الذي جعل الفتاة تبدأ الطريقَ المجهولَ بجهْل . . . !

قلت: وما الطريق المجهول؟

قال: الطريقُ المجهولُ هو الرجل، وإطلاق الحرية للفتاة أطلق ثلاثَ حريات: حريةُ الفتاة، وحريةُ الحبّ؛ والأخرى حرِّيةُ الزواج. ولما انطلق ثلاثتهن معاً تغَيَّر ثلاثتهن جميعاً إلى فسادٍ واختلال. أما الفتاةُ فكانت في الأكثر للزواج فعادت للزواج في الأقلّ، وفي الأكثر للهو والغزَل؛ وكان لها في النفوس وقارُ الأمّ وحرمةُ الزوجة، فاجترأ عليها الشبّان اجتراءهم على الخليعة والساقطة؛ وكانت مقصورةً لا تنال بعيبٍ ولا يتوجهُ عليها ذم، فمشتْ إلى عيوبها بقدَمَيها، ومشت إليها العيوب بأقدام كثيرة . . . وكانت يحملها امرأةَ واحدةً، فعادت مما ترى وتعرف وتكابدُ كأنَّ جسمها امرأة، وقلبها امرأةٌ أخرى وأعصابها امرأةٌ ثالثة . . .

وأما الحبُّ، فكان حباً تتعرَّف به الرجولةُ إلى الأنوثة في

قيودٍ وشروط ، فلما صار حرًّا بين الرجولةِ والأنوثة ، انقلبَ حيلةً تَغترُّ بها إحداها الأخرى ؛ ومتى صار الأمرُ إلى قانون الحيلة فقد خرج من قانون الشرف وعاد هذا الشرف نفسه وليس إلا كلمةً يُحتال بها

وأما الزواج ، فلما صار حرًّا جاء الفتاة بشبه الزوج لا بالزوج ، وضعفتْ منزلته وقلّ اتفاقه وطال ارتقاب الفتيات له ، فضعف أثره في النفس المؤنَّثة ؛ وكانت لفظتا الشابّ والزوج شيئاً واحداً عند الفتاة وبمعنى واحد ، فأصبحتا كلمتين متميزتين ، في إحداهما القوةُ والكثرةُ والسهولة ، وفي الأخرى الضَّعف والقِلّةُ والتعذُّر ؛ فالكلُّ شبّان وقليلٌ منهم الأزواج . وبهذا أصبح تأثير الشاب على الفتاة أقوى من تأثير الشرف ، وعاد يُقْنِعها منه أخسُّ براهينه ، لا بأنه هو مقْنع ، ولكنْ بأنها هي مهيّأةٌ للاقتناع . . .

وفي تلك الأحوال لا يكون الرجلُ إلا مغفَّلا في رأي المرأة إذا هو أحبَّها ولم يكن محتالا حيلة مثله على مثلها ، ويظلّ في رأيها مغفَّلا حتى يخدعها ويستزلّها ، فاذا فعل كان عندها نذلاً لأنه فعل ، وهذه حريةٌ رابعة في لغة المرأةِ الحُرةِ والزواج الحُر والحب الحُر !

وانظر — بعيشِك — ما فعلت الحريةُ بكلمة (التقاليد) ، وكيف أصبحتْ هذه الكلمةُ السامية من مبذوء الكلام ومكروهه حتى صارت غيرَ طبيعية في هذه الحضارة ، ثم كيف أحالتها فجعلتها في هذا العصر أشهرَ كلمة في الألسنة يُتهكَّم بها على الدين والشرف وقانون العُرف الاجتماعيّ في خوف المعَرّة والدنيئة والتصاون من الرذائل والمبالاة بالفضائل ؛ فكل ذلك (تقاليد) .. وقد أخذت الفتيات المتعلّمات هذه الكلمة بمعانيها تلك ، وأجْرَيْنها في اعتبارهن مكروهةً وحشيةً ، وأضفْن إليها من المعاني حواشيَ أخرى ، حتى ليكاد الأب والأمُّ يكونان عند أكثر المتعلمات من « التقاليد » . . أهي كلمةٌ أبدعتْها الحرية ، أم أبدعها جهلُ العصر وحماقتُه وفجُورُه والحادُه ؛ أهي كلمةٌ تعلّمتْها الفتياتُ المتعلماتُ لأنها لغةٌ من اللغة ، أم لأنها من لغة ما يُحبِبن .. ؟

« تقاليد » ... ؟ فما هي المرأة بدون التقاليد ؟.. إنها البلادُ الجميلةُ بغير جيش، إنها الكنزُ المخبوءُ مُعرَّضاً لأعين اللصوص تحوطه الغفلةُ لا الرقابة . هبِ الناسَ جميعاً شرفاء متعففين ، فان معنى كلمةِ « كنز » متى تُركتْ له الحرية وأُغفل من تقاليد الحراسة ، أوجدت حريتُه هذه بنفسها معنى كلمة « لص » ..

* * *

قال صاحبُنا : أما الفتاة المحرَّرة من (التقاليد) . . كما عرفتُها فهي هذه التي أقصّ عليك قصتَها ، وهي التي جعلتني أعتقد أن لكل فتاةٍ رُشدَين يثبتُ أحدهما بالسِّن ويثبت الآخرُ بالزواج . ولو أن عانساً ماتت في سن الخمسين أو الستين لوجبَ أن يقال : إنها ماتت نصفَ قاصر ! ولعل هذا من حكمة الشريعة في اعتبار المرأةِ نصفَ الرجل ، إذ تمامُ شرفها الاجتماعي أن يكون الرجلُ مضموماً إليها في نظام الاجتماع وقوانينه ؛ فالزوجُ على هذا هو تمامُ رشدِ الفتاة بالغةً ما بلغت

وأساسُ المرأةِ في الطبيعة أساسٌ بدنيٌّ لا عقليّ ، ومن هذا كانت هي المصنعَ الذي تُصنَع فيه الحياة ، وكانت دائماً ناقصة لا تتمّ إلا بالآخر الذي أساسُه في الطبيعة شأنُ عقلِه وشأنُ قوّته . .

واعتبرْ ذلك بالمرأة تَدْرُسُ وتتعلّم وتنبغ ، فلو أنك ذهبتَ تمدحُها بوفور عقلها وذكائها ، وتُقرِّظها بنبوغها وعبقريتها ، ثم رأتك لم تُلق كلمة ولا إشارة ولا نظرة على جسمِها ومحاسنها لتحوّل عندها كلُّ مدحك ذماً وكلُّ ثنائك سخرية ، فان النبوغ هاهنا في أعصاب امرأةٍ تريد أن تعرفَ مع أسرار الكون أسرارَ كونها هي ، هذا الكون البدنيُّ الفاتن ، أو الذي تزعمُه هي فاتنا ، أو الذي لا ترضاه ولا ترضى أن تكون صاحبتَه ، إلا إذا وجدت من يزعم لها أنه كونٌ فاتنٌ بديعٌ مزيّنٌ بشمسه وقمره وطبيعتِه المتنضِّرة التي تجعل مَسه مَسّ ورق الزهر

مثل هذه إنما يكون الثناء عليها ثناءً عندها حينما يكونُ أقله باللسان العلميِّ ولغتِه ، وأكثرُه بالنظر الفنيِّ ولغتِه . وهذا على أنها عالةُ الجنسِ ونابغتُه ، ودليلُ شذوذِه العقليّ ، والواحدة التي تجيء كالفلتةِ المفردة بين الملايين من النساء ؛ فكيف بمن دونَها ، وكيف بالنساء فيما هُنّ نساءٌ به ؟

دع جماعةً من العلماء يمتحنون هذا الذي بينتُ لك ، فيأتون

بامرأةٍ جميلة نابغةٍ ، فيضعونها بين رجال لا تسمعُ من جميعهم إلا : ما أعقلَها ، ما أعقلها ، ما أعقلها ! ولا ترى في عينيْ كلٍّ منهم من أنواع النظر وفنونه إلا نظرَ التلميذ لمعلّمةٍ في سنّ جدّته .. فهذه لن تكون بعد قريب إلا في حالة من اثنتين : إما أن يخرج عقلها من رأسها ، أو . . . أو تخرج في وجهها لحْية ... !

(ما أعقلها !) كلمةٌ حسنةٌ عند النساء لا يأبينها ولا يذممنها ، غير أن الكلمة البليغةَ العبقريةَ الساحرةَ هي عندهن كلمةٌ أخرى هي : (ما أجملها !) ، إن تلك تُشبه الخبزَ القَفارَ لا شيء معه على الخِوان ، أما هذه فهي المائدة مُزينة كاملة بطعامها وشرابها وأزهارها وفكاهتها وضحكها أيضاً

وكأن العقلَ الانسانيّ قد غضب لمهانة كلمته وما عرّها به النساء ، فأراد أن يثبت أنه عقلٌ فاستطاع بحيلته العجيبة أن يجعل لكلمة (ما أعقلها) كلّ الشأن والخطر ، وكلّ البلاغة والسحر عند ... عند الطفلة ... تفرح الطفلة أشدّ الفرح ، إذا قيل : ما أعقلها ..!

***

فقلت لمحدّثي : كأنك صادقٌ يا فتى ! لقد جلست أنا ذات يوم إلى امرأة أديبة لها ظَرفٌ وجمال ، وجاءت كبريائي فجلست معنا ... وكانت (التقاليد) كالحاشية لي ، فعلمت بعد أنها قالت لصاحبة لها : « لا أدري كيف استطاع أن ينسى جسمي وأنا إلى جانبه أُذكّره أني إلى جانبه ! لكأنما كانت لقلبه أبوابٌ يفتح ما شاء منها ويُغلق »

قال محدّثي : فهذا هذا ؛ إن إحساسَ المرأة بالعالم وما فيه من حقائق الجمال والسرور ، إنما هو في إحساسها بالرجل الذي اختارته لقلبها ، أو تهمّ أن تختاره ، أو تودّ أن تختاره ؛ ثم إحساسها بعد ذلك بالصُّوَر الأخرى من رجلِها في أولادها . وحياةُ المرأة لا أسرار فيها ألبتة ، حتى إذا دخلها الرجل عرفت بذلك أن فيها أسراراً ، وتبيّنَتْ أن هذا الجسم الآخر هو فلسفةٌ عميقةٌ لجسمها وعقلِها

قال : وقد جلستُ مرةً مع صاحبة القصة ، وأنا مغضبٌ أو كالمغضَب . . ثم تلاحَيْنا وطال بيننا التلاحي ؛ فقالت لي : أنت بجانبي وأنا أسألُ : أين أنت ؟ فانك لستَ كلَّك الذي بجانبي !

قال : ومذهبي في الحب ، الكبرياءُ ، كما قلت أنت ، غير أنها الكبرياءُ التي تدرك المرأةُ منها أني قويٌ لا أني مُتكبّر ؛ كبرياءُ الرجل إمّا مَهيبٌ مَرِحٌ يملكُ أفراحَ قلبها ، وإما حزينٌ مَهيبٌ يملك أحزانَ هذا القلب .

إن المرأة لاتحبّ إلا رجلا يكون أوّلُ الحسن فيه حُسْنَ فهمِها له ، وأوّلُ القوّةِ فيه قوّة إعجابها به ، وأوّلُ الكبرياء فيه كبرياءَها هي بحبّه وكبرياءَها بأنه رجل . هذا هو الذي يجتمع فيه للمرأة اثنان : إنسانها الظريف ، ووَحْشها الظريف !

***

قلت : لقد بعُدْنا عن القصة ، فما كان خبرُ صاحبتك تلك ؟

قال : كانت صاحبتي تلك تعلم أني متزوّج ، ولكن إحدى صديقاتها أنبأتها بكبريائي في الحب ، ووصفَتْني لها صفة الاحساس لا وصفَ الكلام ؛ فكأنما تنبّهتْ فيها طبيعةُ زَهْو الفتاة بأنها فتاة ، وغريزة افتتان الأنثى بأن تكون فاتنة ؛ فرأتْ في إخضاعي لجمالها عملاً تعمله بجمالها .

ومتى كانت الفتاةُ مستخِفّةً « بالتقاليد » كهذه الأديبةِ المتعلّمة ـ رأت كلمةَ (الزوج) لفظاً على رجل كلفظ الحب عليه ، فهما سواءٌ عندها في المعنى ، ولا يختلفان إلا في (التقاليد)..

وتعرّضَتْ لي كما يعرضُ المصارعُ المصارع ؛ إذ كانت من الفتيات المغرورات اللواتي يحسبْن أن في قوّتهن العلميّة تياراً زاخراً لنهرنا الاجتماعيّ الراكد ، فتاة تخرّجتْ في مدرسة أو كلّية ، أو جاءت من أوربا بالعالميّة . . . أفتدري أيةُ معجزةٍ مصريةٍ في هذا تُباهي بها مصر ؟

إن المعجزة أن هذه الفتاة صارت مدرّسة ، أو مفتّشة ، أو ناظرة في وزارة المعارف ؛ أو مؤلّفة كتبٍ وروايات ، أو محرّرة في صحيفة من الصحف . ولا يَصْغُرَنّ عندك شأنُ هذه المعجزة فهي والله معجزةٌ مادام يتحقّق بها خروجُ الفتاة من حكم الطبيعة عليها وبقاؤها في الاجتماع المصريّ امرأةً بلا تأنيث ، أو انقلابُها فيه رجلا بلا تذكير ! وكيف لا يكون من المعجزات أنّ تأليفَ روايةٍ قد أغنى عن تأليف أُسرة ؛ وأن فتاةً تعيش

وتموت وما ولدت للأمّـة إلا مقالات . . . ؟

فقلت : ياصاحبى ، دعْ هؤلاء وخذ الآنَ فى حديث الطائشة الخارجة على التقاليد ، وقد قلتَ إنها عرَضَتْ لك كما يعرض المصارعُ للمصارع

قال : عرَضتْ لى تريد أن تصرّفنى كيف شاءت ، فنبوْتُ فى يدها ؛ فزادت إلى رغبتها إصرارَها على هذه الرغبة ، فالتويتُ عليها ؛ فزادت إليهما خشيةَ اليأس والخيبة ، فتعسّرْتُ معها ؛ فزادت إلى هذه كلّها ثورة كبريائها ، فلم أتسهّل ؛ فانتهت من كل ذلك بعد الرغبة الخيالية التى هى أول العبث والدلال ، إلى الرغبة الحقيقية التى هى أولُ الحب والهوى : رغبةِ تعذيبى بها لأنها متعذّبة بى .

ثم ردّتها الطبيعةُ صاغرةً إلى حقائقها السلبيّة ، فاذا الكبرياءُ فيها إنما كانت خضوعاً يتراءى بالعصيان ، وإذا الرغبةُ فى تعذيب الرجل إنما كانت التماساً لأن تنعمَ به ، وإذا الاصرار على إخضاع الرجل وإذلاله إنما كان إصراراً على تجربته ودفعه أن يستبدّ ويملك . وردّتها الطبيعة إلى هذه الحقيقة النّسوية الصريحة التى بُنيتِ المرأة عليها شاءتْ أم أبتْ، وهى أن تعانى وتصبرَ على ما تعانى !

أما أنا فأحببتها حباً عقلياً ، وكان هذا يشتدُّ عليها ، لأنه إشفاقٌ لا حبّ ؛ وكانت إذا سألتْنى عن أمر ترتاب فيه قالت : أجبْنى بلسان الصدق لا بلسان الشفقة . وكانت تقول : إن فى عينيها بكاءً لا تستطيع أن تذيلهُ مع الدمع ، وسيقتلها هذا البكاءُ الذى لا يُبكَى ، وقد اتخذت لها فى دارها خلوةً سمّتها : محرابَ الدمع ! قالت : لأنها تبكى فيها بكاءَ صلاةٍ وحبّ ، لا بكاءَ حب فقط !

ثم طاشتِ الطيْشةَ الكبرى . . . !

***

قلت : وما الطيشةُ الكبرى ؟

قال : إنها كتبتْ إلى هذه الرسالة :

« عزيزى رغمَ أنفى » . . .

« لقد أذلّلتنى بشيئين : أحدهما أنك لم تذلّ لى ، وجعلتنى على تعليمى أشدَّ جهلاً من الجاهلة . وقد نسيتَ أن المرأة المتعلّمة تعرفُ ثم تعرف مرتين — : تعرفُ كيف تخطىء إذا وجب أن تخطىء ، أما المعرفة الثانية فتوهمها أنتَ فكأنى قلتها لك . .

اعلمْ « ياعزيزى رغمَ أنفى » ، أنى إذا لم أكن عزيزتك رغم أنفك ، فسأتى ما يجعلك سلفاً ومَثَلا ، وستكتب الصحف عنك أوّلَ حادث يقع فى مصر عن أوّل رجل اختطفتْه فتاة !.

وبعد ، فقد أرسلتُ روحى تعانق روحك ، فهل تشعر بها ؟ »

قال : فوجمتُ ساعة وتبينتْ لى خفتها ، وظهر لى سَفاهها وطيشها ، فأسرعتُ إليها جئتها فأجدُها كالقاضى فى محكمته ، لا عقل له إلا عقلُ الحكم القانونىّ الذى لا يتغير ، ولا إنسانَ فيه إلا الانسانُ المقيد بمادة كذا إذا حدث كذا ، والمادة كذا حين يكون وصفُ الجرم كذا . . . !

فقلت لها : أهذا هو العلمُ الذى تعلّمتيه ؟ ألا يكون علمُ المرأة خليقاً أن يجعل صاحبتَه ذاتَ عقلين إذا كانت الجاهلةُ بعقل واحد ؟

قالت : العلم ؟

قلت : نعم ، العلم

قالت : ياحبيبى ، إن هـذا العلم هو الذى وضعَ المسدّس فى يد المرأةِ الأوربيّة لعاشقها ، أو معشوقها ! ثم أطرقت قليلاً وتنهدت وقالت : والعلم هو الذى جعل الفتاة هنك تتزوج بارشاد الرواية التى تقرؤها ، ولو انقلب الزواجُ رواية . . . والعلم هو الذى كشف حجابَ الفتاة عن وجهها ، ثم عاد فكشف حياء وجهها ، وأوجب عليها أن تُواجهَ حقائق الجنس الآخر وتعرفها معرفةً علميّة . . . . والعلم هو الذى جعل خطأ المرأة الجنسىّ مَعْفُواً عنه ما دام فى سبيل مواجهة الحقائق لا فى سبيل الهرَب منها . . . والعلم هو الذى جعل المرأةَ مساويةَ للرجل ، وأكّد لها أن واحداً وواحداً هما واحدٌ وكلاهما أوّل . . . . والعلم هو الذى عرّى أجسامَ الرجال والنساء ببرهان أشعةِ الشمس . . . والعلم ياعزيزى هو العلم الذى محا من العالم لفظةَ أمس ، لا يعرفها وإن كانت فيها الأديانُ والتقاليد . . .

***

قال صاحبها : فقلتُ لها : كأن العلم إفسادٌ للمرأة ! وكأنه تعليمُ مَضَرّاتها ونقائصها ، لا تعليمُ فضائلها ومحاسنها

قالت : لا ، ولكنّ عقلَ المرأة هو عقلٌ أنثى دائماً ؛ ودائماً عقلٌ أنثى ؛ وفى رأسها دائماً جوُّ قلبها ، وجوُّ قلبها دائماً فى رأسها . فاذا لم تكن مدرستُها مُتمِّمةً لدارها وما فى دارها ، تمّمتْ فيها الشارعَ وما فى الشارع

العلم للمرأة ، ولكن بشرط أن يكون الأبُ وهيبةُ الأب أمراً مقرَّراً فى العلم ، والأخُ وطاعةُ الأخ حقيقةً من حقائق العلم ، والزوجُ وسيادةُ الزوج شيئاً ثابتاً فى العلم ، والاجتماع وزواجرُه الدينيةُ والاجتماعية قضايا لا يَنْسَخُها العلم . بهذا وحده يكون النساء فى كل أمة مصانعَ علميّةً للفضيلة والكمال والانسانية ، ويبدأ تاريخُ الطفل بأسباب الرجولة التامّة ، لأنه يبدأ من المرأة التامّة

أما بغير هذا الشرط فالمرأةُ الفلاّحةُ فى حجرها طفلٌ قذر ، هى خير للأمة من أكبر أديبةٍ تخرج ذُرِّيةً من الكتب . . .

انظر — « يا عزيزى رغم أنفى » — هذه رسالة جاءتني اليوم من صديقتى فلانة الأديبة الـ . . . فاسمع قولها :

« وأنا أعيشُ اليوم فى الجمال ، لأنى أعيش فى بعض خفايا الحبيب . . . »

« وفى الحياة موتٌ حلوٌ لذيذ ؛ عرفتُ ذلك حينما نسيتُ نفسى على صدره القوىّ ، وحينما نسيتُ على صدره القوىّ صدرى . . . . »

أسمعتَ يا عزيزى ؟ إن كنت لمّا تعْلَمْ أن هذا هو علم أكثر الفتيات المتعلمات حين يكسدُ الزواج – فاعلَمْهُ . ومتى عَمِيَ الشعبُ والحكومةُ هذا العمى ، فان حريةَ المرأة لا تكون أبدا إلا حريةَ الفكرةِ المحرَّمة !

* * *

قلت لصاحبنا : ثم ماذا ؟

قال : ثم هذا . . . . ودسّ يده فى جيبه فأخرج أوراقاً كتب فيها رواية صغيرة أسماها : (الطائشة) ؟

(الرواية فى العدد الآتى) (طنطا) مصطفى صادق الرافعى

٤ – لوكريسيا بورجيا

صور من عصر الاحياء

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت لوكريسيا إلى جانب هذه الرعاية الأدبية التى تبذلها لأقطاب الشعر والأدب ، تعاون زوجها فى حكم ولايته معاونة قيمة ؛ وكانت تتولى ادارة الشئون العامة أثناء غيابه ، وتبدى فى تصريفها حزماً وبراعة

وكان زواجاً موفقاً فى البنين ، فقد رزقت لوكريسيا بغلامين احدهما فى سنة ١٥٠٨ ويدعى هرقل ، والثانى فى العام التالى ويدعى ايبوليت ، ورزقت بعد ذلك بعدة أعوام بابنة دعيت ألينور ، فغلام ثالث يدعى فرنشيسكو

وخاضت ايطاليا مدى حين حروباً أهلية طاحنة ، وحملت فيرارا قسطها من هذه المعارك ، وتقلبت فى صعاب وأزمات شديدة ، ولكن لوكريسيا كانت فى هذه الأعوام العصيبة مثال الثبات والجلد ، وكانت تعمل على تخفيف آلام الشعب ما استطاعت ، وكان الشعب يحبها ويعتبرها كالأم الرؤوم

وكانت لوكريسيا عندئذ فى عقدها الرابع ، أمّاً ناضجة ، وكأنما طوت كل مراحل هذه الحياة فتية ؛ وكانت قد اختتمت منذ بعيد هذا المهد الضاحك الذى كان قلبها يشع فيه مرحاً وغبطة ، واستقبلت عهداً جديداً تسوده الرزانة والخطورة ، ويسوده الزهد والترفع عن متاع هذه الحياة ، فكانت فى أعوامها الأخيرة فى فيرارا تذهب كل صباح الى « المعترف »

أجل ، كانت لوكريسيا تقترب بسرعة من الخاتمة المحتومة ، ففى ١٤ يونيه سنة ١٥١٩ وضعت لوكريسيا طفلة ميتة ، وكانت فى أشهر حملها الأخيرة تشكو آلاماً مبرحة ؛ وكان الوضع هو الضربة القاضية ، إذ اشتدت عليها الآلام والمرض ، وشعرت بقضائها يدنو ؛ فأملت فى يوم ٢٢ يونيه خطاباً وجهته الى البابا ليون العاشر ، وفيه تلتمس من البابا أن يباركها فى عبارات بليغة مؤثرة ؛ وبعد ذلك بيومين فقط ، كان القضاء المحتوم ،

وصمدت الى بارئها تلك الروح الوثابة الساطعة ، وأغلقت لوكريسيا بورجيا عينيها الساحرتين الى الأبد ، وقد أشرفت فقط على الأربعين من عمرها

* * *

هكذا كانت حياة تلك التى أثارت فى عصرها بشخصيتها الساحرة وحياتها الساطعة كثيراً من الحب والعطف ، والنقمة والروع ؛ ثم غدت سيرتها بعد ذلك على كر العصور مستقى لكثير من القصص الشائق المثير معاً

والآن ، وقد فرغنا من تتبع هذه الحياة فى أدوارها المختلفة ، نعود فنحاول أن نتلمس فيها مواطن الحقيقة والخيال

هل كانت لوكريسيا بورجيا تلك التى تصفها الرواية المعاصرة شيطاناً للرذيلة والاثم ؟ وهل كانت تلك البغى السافلة التى تتقلب بين أذرع أبيها وأخويها ؟ أم هل كانت ضحية اتهام شائن تمليه الخصومة والحقد ؟

إن هذه التهم الشائنة التى تنسبها الرواية والقصة الى لوكريسيا بورجيا ، والتى أشرنا إليها فيما تقدم ترجع الى الروايات المعاصرة ذاتها ، وهذا ما يسبغ عليها مسحة من القوة ؛ وقد رأينا كيف أن بوركارت مدير التشريفات البابوية يثبتها فى مذكراته كوقائع حقيقية ، وقد كان بوركارت بمركزه واتصاله المستمر باسكندر السادس وأفراد أسرته ، ممن يستطيعون الوقوف على الحقائق من مصادرها

وقد حذا حذو بوركارت عدة من المؤرخين والرواة المعاصرين مثل جويشاردينى المؤرخ والسياسى البارع ، وقد كان من أعلام العصر ؛ فهو يردد فى كتابه « تاريخ إيطاليا » معظم التهم والآثام التى نسبت إلى لوكريسيا وإلى آلها

ومن أدلة الاتهام المعاصر أيضاً وثيقة خطيرة ، هى خطاب كتب فى سنة ١٥٠١ ، ووجهه كاتبه إلى سيلفيو سافيللى ، وهو أحد النبلاء الاقطاعيين الذين نزع اسكندر السادس أملاكهم ؛ وكان ذلك الحين يقيم فى بلاط أمبراطور ألمانيا مستجيراً به ؛ ولم يعرف كاتب الخطاب ، ولكن ذكر فى ختامه أنه حرر فى تارانتو فى المعسكر الملكى (الاسبانى)

وفى هذا الخطاب يعدد الكاتب آثام اسكندر السادس وآل بورجيا ، ويتحدث عن أطماعهم وجرائمهم السياسية والاجتماعية ، وعما يرتكبونه من صنوف العيث والفجور والتهتك ، وعن انتهاكهم لكل الحرمات الدينية والاجتماعية وسحقهم لكل مبادىء الحياء والحشمة ؛ ويتحدث بنوع خاص عن شيزارى بورجيا وجرائمه الدموية ، وعن لوكريسيا وعلائقها الأثيمة مع أبيها وأخويها ، وعن الحفلات الخليعة الشائنة التى يقيمها البابا وأبناؤه ، ويخص بالذكر حادثة الليلة العارية التى اجتمع فيها خمسون من غانيات رومة عراة أمام البابا وأولاده وارتكب فيها من صنوف الفحش المثير ما ارتكب وما أشرنا اليه فيما تقدم ؛ ويتحدث بوجه عام عن حالة المجتمع الرومانى فى ذلك الحين وما بثه اليه آل بورجيا من صنوف الفساد والاثم والروع ؛ كل ذلك فى إفاضة ومنطق قوى يدل على تمكن الكاتب من الشؤون التى يتناولها

وقد ترجم هذا الخطاب الذى يعرف بخطاب « سافيللى » إلى معظم اللغات الأوربية ونشر فى سنة ١٥٠٢ فى جميع العواصم ، وكان له وقع هائل فى إيطاليا ، وفى أوربا كلها ؛ وسجلته أيضاً جميع التواريخ والروايات المعاصرة

ويرى المؤرخ الألمانى جريجوروفيوس فى كتابه « تاريخ رومة فى العصور الوسطى (1) » فى هذا الخطاب وثيقة حقيقية تمثل صورة رومة فى عصر آل بورجيا ، وأنه لا تفضلها وثيقة أخرى فى تصوير سياستهم الفاجرة ، وما بثوه من الروع فى المدينة على يد أعوانهم وجواسيسهم

وترى هذه التهم ماثلة لا فى الروايات المعاصرة فقط ، ولكن فى كثير من الكتب والرسائل السياسية المعاصرة ، وفى شعر بعض أكابر الشعراء المعاصرين

وما زالت سيرة آل بورجيا ، وسيرة لوكريسيا ، بما يتخللها من تلك الصور المروعة المثيرة ، حتى العصر الحديث مستقى القصص والشعر ؛ وقلما يخترع القصص أو الشعر فيها شيئاً لم تدونه الروايات المعاصرة ؛ ومع ذلك فان هذه القطع القصصية أو الشعرية تقوم على كثير من الوقائع المغرقة أو الخيالية المحضة ، التى لا يستطيع المؤرخ أن يقف بها

(1) Geschichte der Sratt Rome im Mittelalter

مثال ذلك ما كتبه اسكندر ديما عن « آل بورجيا » فى كتابه « الجرائم الشهيرة »[1] ، فقد تناول سيرة آل بورجيا ولوكريسيا فى فصل طويل فياض بالوقائع والصور المدهشة ، وقدم لنا اسكندر السادس ، وابنه شيزارى ، وابنته لوكريسيا فى أروع الصور وأسفلها : طغمة من الأبالسة ، تسحق الحياة البشرية تحت أقدامها ، وتبث الدمار والموت فى أرجاء المدينة الخالدة ، بالسم والخنجر وكل وسيلة آثمة ؛ وتقدم إلينا لوكريسيا فى صورة بغى سافلة ، تعاشر أباها وتعاشر أخويها ، وجمعاً كبيراً من الصحب والخلان

ووضع فكتور هوجو قطعته المسرحية الخالدة « لوكريسيا بورجيا »[2] فجاءت خلاصة من تلك الروايات المغرقة المعاصرة ، ولا بأس من أن نقدم خلاصتها ليرى القارئ كيف أن الشاعر لم يلحظ فى مادته إلا أن تكون مثار السحر والروع :

هى قطعة نثرية فى ثلاثة فصول ، خلاصتها أن عدة سفراء فتيان من فلورنس شهدوا فى مدينـة البندقية (فينزيا) مرقصاً محجباً ، كانت تمثل فيه لوكريسيا بورجيا محجبة ؛ وكان معهم فتى يدعى جنارو ، وهو فتى مجهول النشأة لا يعرف له أماً ولا أباً . وجلس الفتية الفلرنسيون يتحدثون عن آل بورجيا ويرددون مايذاع عنهم من قصص القتل والآثام الشنيعة ؛ وجلس جنارو إلى جانبهم وقد أخذته سنة من النوم ؛ وبعد هنيهة تقدمت امرأة محجبة ، وهوت على جنارو تقبله فاستيقظ من نومه . من هى ؟ هى لوكريسيا ، وهى أمه ، وهو ولدها الطبيعى ؛ ولم تستطع حين رؤيته أن تقاوم هـذه اللذة . ورفعت لوكريسيا قناعها لجنارو خاسة ؛ ولـكن الفتية الفلرنسيين رأوها وعرفوها ، وظنوها خليلته ، واعتزموا زيارتها معه فى فيرارا مقامها . وظن زوجها (دوق فيرارا) ان جنارو صاحبها ، فأمر بالقبض عليه ، وأراد أن يرغم لوكريسيا على أعدامه بيديها بحجة أنه أهان اسم آل بورجيا وذلك بازالة بعض حروفه المنقوشة على شرفة القصر ؛ ونفذ الدوق مشروعه فعلاً ، فأرغم لوكريسيا على أن تضع السم فى كأس جنارو ، وأن تقدمه إليه . ولما شرب الفتى الـكأس المسمومة ، تركهما الدوق ؛ فبادرت لوكريسيا إلى انقاذ جنارو ،

وقدمت له الترياق ؛ فتردد الفتى لأنه كان يعتبرها أشد اجراماً من الدوق ، ولـكنه شرب الترياق أخيراً ونجا من الموت

وأرادت لوكريسيا أن تنتقم من الفتيان الفلرنسيين الذين عرفوها وأذاعوا اسمها ، فاحتالت لدعوتهم إلى العشاء عند إحدى صاحباتها ، وبينما هم فى أرق لحظات المرح ، إذا بهم يسمعون أناشيد الحزن ، ومن ورائهم صف من الرهبان والنعوش ، فاعتقد الفتيان أنها مزحة مدبرة ، ولكنها كانت الحقيقة الرائعة ؛ ذلك أنهم تناولوا السم فى الطعام والشراب ، ولم يبق بينهم وبين الموت سوى لحظات ، ولـكن شاء نكد الطالع أن يكون بينهم جنارو ! فتقدم إلى لوكريسيا يطالب نعشه ؛ فذهلت لوكريسيا ، وحاولت أن تبادر إلى إنقاذه ، ولـكنه لم يقبل ، ولم يمهلها حتى أخرج خنجره ، وما كاد يطعنها حتى صاحت : « إنى أمك ! »

هذه هى خلاصة قطعة هوجو المسرحية الخالدة التى مازالت منذ نحو قرن تسحر ملايين النظارة ، وهى كما ترى قطعة من الخيال المغرق لم يراع الشاعر فيها شيئاً من التاريخ الحق

ومع ذلك فان ما كتبه اسكندر ديما وهوجو إنما هو انموذج فقط لمئات السير والقصص التى كتبت عن لوكريسيا بمختلف اللغات ، وكلها نماذج للخيال المغرق والقصص المثير

* * *

بيد أننا نرى فى عصرنا مؤرخاً بارعاً هو العلامة الفرنسى فرانز فونك برنتانو ، يحاول فى كتابه الذى أشرنا إليه من قبل أكثر من مرة[1] أن ينتزع شخصية لوكريسيا بورجيا من تلك الغمر المروعة التى أحاطت بسيرتها ، وأن يمحص تلك الروايات المغرقة التى امتزجت بحياتها ، وأن يرد كثيراً من التهم التى نسبت إليها

وفى رأى هذا المؤرخ البارع ، الذى يدعم عرضه فى معظم الأحيان بمنطق خلاب ، أن التاريخ قد ظلم لوكريسيا أشنع ظلم ، وأن هذه الفتاة التى صورتها الروايات المعاصرة بغياً فاجرة ، لم تكن سوى ضحية وأداة ذلول فى يد أبيها وأخيها ، وأنها كانت تدفع دفعاً إلى مشاطرة هذه الحياة المثيرة التى كانت تنتظم فى قصر الفاتيكان ، ولـكنه يرد عنها تهم الفجور الشنيعة التى نسبت

---

(1) Les crimes célébres

(2) Lucrèce Borgia

(1) Lucrèce Borgia

إليها ؛ ولا سيما تهمة عشرة أبيها وأخيها ، ويرتاب فى أقوال بوركارت وغيره من الرواة المعاصرين ، ويرى أن هذه التهم ترجع فى الأصل إلى الحملة القاذفة التى شهرها جان سفورزا زوج لوكريسيا الأول عليها انتقاماً لفصله منها ، وإلى الحملات القاذفة التى دبرت أيضاً ضدها وضد آلها فى بلاط نابل على أثر مقتل زوجها الثانى الفونسو الأرجونى ، وهى حملات ظهر أثرها فى نظم الشعراء المعاصرين الذين يغذيهم بلاط نابل

ويصور لنا برنتانو لوكريسيا فتاة ناعمة وافرة السحر والرقة ، وافرة الذكاء والحزم ، ويصورها لنا فى فيرارا أميرة رفيعة الخلال تحمى الآداب والفنون ، ويكاد يصورها لنا فى أعوامها الأخيرة قديسة فياضة الورع والتقوى

وكتاب برنتانو قطعة بديعة من التدليل التاريخى ، وقد يدفع بدقة منطقه كثيراً من التهم التى نسبت إلى ابنة اسكندر السادس ؛ ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يهدم كثيراً من العناصر الأساسية التى تمثل فى هذا الاتهام

ومع أننا بالرغم من محاولة برنتانو البديعة ، ما زلنا نؤثر ناحية الاتهام فى سيرة لوكريسيا بورجيا ، فانا نميل مع برنتانو الى الاعتقاد بأن كثيراً من الاغراق والمبالغة يشوب تلك الصور المروعة الآثمة التى تركتها لنا سير العصر ، عن تلك الشخصية الباهرة المظلمة معاً ؟

(تم البحث) **محمد عبد الله عنان**

(النقل ممنوع) المحامى

التربية الخلقية والاجتماعية

فى المدرسة

للأستاذ فخرى أبو السعود

فى كلمة سابقة بهذا العنوان ذكرت أن الوسيلة الوحيدة لتحقيق مدارسنا الغرض الأسمى من التربية — وهو التربية الخلقية الاجتماعية — هى خلق مجتمع راق فى المدرسة يساهم فيه الطالب ويكتسب فيه من محمود الصفات الخلقية ومقتضيات الحياة الاجتماعية ما يخرجه إلى المجتمع عارفاً بمطالبه ، مزوداً بالمؤهلات التى تساعده على الاندماج فيه والنجاح فى معتركه

وأعود الآن إلى بيان مزايا هذا المجتمع الواجب خلقه فى المدرسة ، فمزاياه لاتقتصر على اختلاط الطلاب بعضهم ببعض لحميد الأغراض ، بل تشمل أيضاً اختلاطهم بالمعلمين ، وهو أمر لازم للتربية الصحيحة ؛ إذ من طبيعة الناشئين الاقتداء بمن هم أكبر منهم وأخبر ، ومن طبيعة المواهب الانسانية العقلية والخلقية ألا تنمو وتسمو إلا بتقليد أولئك الذين ينظر إليهم الناشىء نظرة إكبار ، ويُحسن فيهم الاعتقاد ، وتنزع نفسه إلى التشبه بهم

وهذا الاختلاط الجم المزايا بين الطلاب ومعلميهم سائد فى معاهد انجلترا من المدارس الصغيرة إلى الجامعات الكبيرة ، وأثره فى تربية الناشئة الانجليزية أعظم من أثر كل ما يلقى فى حجرات الدراسة من معلومات ؛ فالمعلمون يعاملون طلابهم معاملة الزملاء الصغار أو الأقرباء الناشئين ، وبهذه الروح يناقشونهم فى أوقات الدراسة ، ويشاركونهم ألعابهم وحفلاتهم ، ويُكنّ المعلمون لطلابهم العطف ، ويكن الطلاب لمعلميهم الاحترام ، وتسود معاملة الفريقين البساطة التامة ، وأعْظِمْ بما لذلك من أثر فى تربية الرجولة والصراحة والاعتداد بالنفس بين الناشئين !

أما فى مدارسنا فالهوة بين المعلمين والطلاب سحيقة ، والنفرة شديدة : لايفهم المعلم من نفسية كل طالب شيئاً كثيراً ، ولايعطف إلا على النادر منهم ، ولايعلم الطلاب عن معلميهم غير ما يثرثره عليهم من معلومات لاتنتهى إلا بانتهاء السنة المدرسية ، ولايضمرون له حباً ولا ميلاً ، بل يستحكم العداء بين الفريقين

أحياناً إذا كان الطلاب ضعفاء فى مواد الدراسة ، أو كان المدرس شديداً ملتزماً للجد ، وقد استحال أن يسود بينهما الود الذى هو أجدر أن يسود بين المربى والمتربى ، فمن معلمينا من يأبى أن يهبط إلى التبسط مع طلابه ، ومنهم من يود لو فعل فيردُّه علمُه بما يجر إليه ذلك من فساد درسه ؛ إذ يندفع الطلاب وراء الهزل ويسيئون المسلك وينسون الدرس ، لأن ناشئتنا من الجهل بآداب الاجتماع بحيث لا يعلمون معنى القصد فى الأمور ، ولا يقنعون إذا تركوا وشأنهم بما دون الامعان فى العبث

ونتيجة هذه الحال السائدة فى مدارسنا أن معظم الطلاب — سواء متقدموهم فى العلوم ومتخلفوهم — يغادرون المدارس وهم مزيج من الخجل والتبجح والغرور والنفاق ، إذا انفرد أحدهم رأيته على جانب كبير من الخجل والعجز والحصَر ، وإذا اجتمعت فئة منهم ارتد خجلهم تبجحاً وحصرهم صخباً وعجزهم جرأة على الفساد ؛ وبينما تؤدى العلاقة بين المعلم والمتعلم فى انجلترا إلى صداقة مثمرة فى مستقبل الحياة تَنبَتُّ الصلة بين المعلم والطالب عندنا بانتهاء العام الدراسى ، حتى لقد يتقابل الاثنان فيتغاضى الطالب عن معلمه ، أو يخاطبه فى لهجة جريئة متطاولة ، وفى كلتا الحالين لا يأسى المرء إلا على ما بهذا المسلك من دلالة على فشل التربية وعبث المجهود المنفق فيها

والعلة فى هذا ترجع إلى نظام مدارسنا التى تجعل مَلْء الرؤوس بالمعلومات الغاية الكبرى بل الوحيدة من التعليم ، فتشغل كل أوقات المدرسة بها ، فيرى المدرس — المرهق ببرنامج حافل — وقته أضيق من أن يصرف جانباً منه فى مباسطة طلابه ومناقشتهم فى شتى الشؤون العامة التى تمتُّ إلى الحياة وتشغل بال كل ذى حظ من الانسانية ونصيب من الثقافة ، فتنقطع الصلة الانسانية بين المعلم والطالب ، ويترك الطلبة وأنفسهم يشبعون تلك الرغبة الفطرية فى التناقش وتبادل الأفكار بثرثرتهم فى أوقات الفراغ — وأوقات الدروس إن استطاعوا — ولما كانوا قد عدموا إرشاد المدرس بفكره الذى هو أرق وشخصيته التى هى أقوى من شخصياتهم وأفكارهم فانهم يتجهون عادة إلى السفساف من الأمور ، ويألفون الثرثرة الفارغة التى لا نهاية لها ولا غاية ، ويختارون قدواتهم فى الحياة من خارج المدرسة آخذيها عن شخصيات قد لا تكون جديرة بالاعجاب أو محمودة التقليد

أما مخالطة الطلاب لمعلميهم فانها — فضلا عن صقلها لآداب المعاملة وحسن الذوق بينهم وعما تنميه فيهم من صفات الرجولة — تفتق أذهانهم وتسمو بهم إلى درجات من التفكير عالية ، وتلقى ضوءاً على مواهب كل منهم وميوله ، وتفسح أمامهم المطامع ، وتبعث فيهم شتى الغايات يجعلونها نصب أعينهم فى الحياة ، على حين لا تتجاوز مطامع الأكثرين منهم اليوم اجتياز الامتحان ونيل الشهادة

ولقد عُهد فى السنوات الأخيرة إلى المعلمين بمدارسنا بمراقبة الجمعيات المدرسية ، ولكن هذه الجمعيات أنشئت دون أن يفسح لها موضع من أوقات الطلاب والمدرسين المغلولى الأيدى فى المناهج الطويلة ، فلم تجتذب من الطلاب إلا القليلين ، وزهد فى رقابتها المدرسون لأنها جاءت زيادة على أعمالهم المتراكمة ، فلم تؤد تلك الجمعيات الأغراض المنشودة ، ولم تكن غير إرهاق على إرهاق ، وستظل كذلك مالم تزحزح المواد الدراسية عن مكانها القدسى الذى تتبوأه فى مدارسنا

هذا ، وليس يطالب من المدرس أن يكون مثلاً أعلى فى الانسانية ، أو بحراً فى العلم ، أو نصف إله ، لكى يؤدى مهمته فى تربية الطلاب الخلقية والاجتماعية ، بل يكفى لينهج بهم النهج القويم أن يكون مستقيم السيرة متنور الذهن مخلصاً فى عمله ، وهذا هو الغالب بين مدرسينا ، وما يحتاج الأمر إلا إلى رفع عبء المواد الدراسية التى تثقل كواهل المعلمين والمتعلمين وتشغل كل أوقاتهم ، وإفساح المكان لمجتمع فى المدرسة يكون صورة صغيرة للمجتمع العام خارجها

إن إيجاد هذا المجتمع الحى الراقى بين جدران المدرسة هو الوسيلة الوحيدة لنجاح مهمتها ، وإعداد الناشئين فيها للمجتمع الأكبر خارجها ، وترقية ذلك المجتمع الخارجى جيلاً بعد جيل ، ولن تؤدى مدرسة مهمة التربية حتى يحيا الطلاب فيها حياة اجتماعية ، ولن يؤدى المعلم واجبه حتى يمنح الفرصة لمخالطة طلابه مخالطة الانسان المستنير للانسان المستنير ، ويحل هذا محل العلاقة الآلية الجافة القائمة بينهما اليوم ، وبهذه الحياة الاجتماعية المدرسية يؤدى المدرس وظيفته « الروحية » التى أشار إليها تقرير معالى وزير المعارف ؟

فخرى أبو السعود
المدرس بالعباسية الثانوية

المنسوجات الإسلامية المصرية
ومعرض جوبلان بباريس

للدكتور زكي محمد حسن
الأمين العلمي لدار الآثار العربية

افتتح صاحب الفخامة رئيس الجمهورية الفرنسية في ١٧ من مايو معرضاً للمنسوجات الاسلامية المصرية أقامته متاحف جوبلان للقطع الأثرية التي بعثت بها إلى باريس دار الآثار العربية من مجموعتها النفيسة؛ وزاد المعرض نجاحاً أن صاحب الجلالة مولانا الملك كان قد تفضل فأذن لجناب المسيو (ڤييت) أن يأخذ لهذا المعرض سبع عشرة قطعة من المجموعة الملكية الفاخرة، فأتيح للجمهور الباريسي أن يعجب ببدائع منتجات الفن الاسلامي، وأن يرى من آيات صناعة النسج الاسلامية قطعاً منقطعة النظير

ويعرف القراء أن صناعة النسج كانت زاهرة على ضفاف النيل منذ العصور الأولى، وأنها سارت في سبيل التقدم بخطى واسعة، حتى جاء العصر القبطي فتأثرت بتيارين من المؤثرات البيزنطية والساسانية

ثم فتح العرب مصر، واعتمدوا في أول الأمر على الصنّاع والفنانين الوطنيين، وأدى ذلك إلى خلق فن إسلامي جميل كان له ازدهار، وكانت له حياة طويلة على عكس التعاون بين الرومان ورعاياهم، ذلك التعاون الذي سار بالفن الهللنستي في طريق السقوط والاضمحلال

وظهر في صناعة النسج الاسلامية في مصر تطور منتظم بدأ بالاستغناء شيئاً فشيئاً عن الرسوم الحيوانية والآدمية التي كان الكلف بها عظيماً في العصر القبطي، وأخذت الكتابة والزخرفة النباتية والهندسية تلعبان دوراً هاماً في تزيين الأقمشة الاسلامية

على أن فن النسج لم يطبع في مصر بطابع إسلامي ظاهر إلا ابتداء من العصر الفاطمي، وفي المتاحف الكبيرة والمجموعات الأثرية كثير من القطع التي ترجع زخرفتها إلى عصر الانتقال من الطراز القبطي إلى الطراز الفاطمي، والتي قد يصعب في بعض الأحيان تمييزها من القطع القبطية. أما القطع التي عليها زخارف طولونية بحتة فان وجودها نادر، وعلى عكس ذلك القطع التي ترجع إلى عصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك

وصناعة النسج في مصر الاسلامية كانت نوعين: صناعة ملكية في مصانع حكومية تسمى طرازاً، وصناعة أهلية عليها رقابة حكومية شديدة

أما المصانع الحكومية أو الطراز فان وجودها منذ العصر العباسي يثبته ما وصل إلينا من مصنوعاتها. والمعروف أنه كان هناك نوعان من هذه المصانع الحكومية: الأول طراز الخاصة، وكان لا يُنتج إلا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته؛ والثاني طراز العامة، وكان بالرغم من تبعيته لبيت مال الدولة يُنتج للتجارة العامة، فضلاً عن انتاجه لبلاط الخليفة أو الأمير ان دعت الحال

ولفظ طراز مشتق من الفارسية «ترازيدن» بمعنى التطريز وعمل المدبّج؛ وأصبح بعد ذلك يدل على الملابس الملكية وما يشبه «ملابس التشريفة»، ولا سيما إذا كان يحليها شيء من التطريز أو أشرطة من الكتابة. وما لبث مدلول هذا اللفظ أن اتسع حتى انتهى في العربية والفارسية إلى الدلالة على المصنع والمكان الذي تنسج فيه مثل هذه الأقمشة

واحتكار الحكومات لصناعة النسج قديم لسنا نعرف أوّليته، ولسنا نستطيع أن نحدّد تماماً أين بدأ نظام الطراز على النحو الذي نعرفه في الفنون الاسلامية. فالعلماء مختلفون في أصله، فريق يذهب إلى أنه نشأ في بيزنطة، وفريق يظنه إيراني الأصل، كما يحسبه آخرون بابلياً أشورياً

على أن مصر عرفت في عهد الفراعنة شيئاً من احتكار صناعة النسج، فقد كانت المصانع ملحقة بالمعابد، وكانت منتجاتها مشهورة في الشرق الأدنى كله، وكانت تدر على المعابد أرباحاً وافرة كان الفراعنة يستولون على جزء منها ويحتفظ كهنة المعابد بما يبقى

على أن نظام الطراز ما لبث أن انتشر في كافة الأقطار الاسلامية، كسورية والعراق وإيران وآسيا الصغرى، وأسبانيا وجزيرة صقلية

وكان طراز الخاصة يعمل في نسج الأقمشة اللازمة للخليفة

ولكبار رجال الدولة ؛ وحاجةُ الخلفاء والأمراء إلى الكثير من تلك الأقمشة ناشئة من العادة القديمة التي اتخذوها في الخلع على رجال حاشيتهم وعلى غيرهم من أفراد الرعية مكافأة لهم وإظهاراً لرضاهم عنهم

وفضلا عن ذلك كان الخلفاء والأمراء يتبارون في إرسال الكسوة السنوية إلى الكعبة الشريفة من المنسوجات النفيسة التي كانت تصنع عادة في طراز الخاصة بمصر

لذلك لم يكن غريباً أن يُعنى الخلفاء والأمراء بكتابة أسمائهم على هذه الأقمشة الثمينة بلحمة من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان تخليداً لذكراهم ووثيقة لمن خلعت عليه إظهاراً لرضاء الأمير ، أو علامة على تولى إحدى الوظائف الكبرى في الدولة

وكانت الكتابة على الأقمشة تشمل اسم الخليفة وألقابه وبعض عبارات الأدعية ؛ وكثيراً ما كان يذكر فيها اسم المدينة التي فيها الطراز ، واسم الوزير ، وصاحب الخراج ، وناظر الطراز ؛ ومثلُ ذلك ما كُتب على قطعة نُسجت للخليفة الأمين محفوظة الآن بدار الآثار العربية ونصه : « بسم الله بركة من الله لعبد الله الأمين محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مما أمر بصنعته في طراز العامة بمصر على يدى الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين »

أما الصناعة الأهلية فكانت تُحمل ضرائب فادحة وتُعانى رقابة الحكومة في مراحلها المختلفة ، فكان لزاماً أن تختم الأقمشة بالخاتم الرسمي ، ولم يكن يتولى البيع أو التجارة إلا تجار تعينهم الحكومة ، وعليهم تقييد ما يبيعونه في سجلات رسمية ، كما كان لف الأقمشة وحزمها وربطها وشحنها يقوم به عمال حكوميون يتناول كل منهم ضريبة معينة

وقد لوحظ أن المراكز الرئيسية لصناعة النسج في مصر كانت في أكثر الأحيان الجهات التي يكثر فيها الأقباط ؛ وكان القطن والكتان ينسجان في البلاد المصرية المختلفة ولاسيما في الدلتا بتنيس والاسكندرية وشطا ودمياط ودابيق والفرما ، كما اشتهرت أيضاً بنسجها مدينة البهنسا

أما الأقمشة الحريرية فكانت تنسج في الاسكندرية وفي دابيق ؛ وكانت هناك أيضاً مصانع للنسج في مدينتي أخميم وأسيوط اللتين كانتا مركزين هامين لصناعة النسج في العصر القبطي ، وكانتا تصدران الى بيزنطة والى بابوات روما كثيرا من الأقمشة النفيسة التي كان يوهب جزء كبير منها الى الكنائس والأديرة

وأما الحرير الصافي فالظاهر أن المصانع المصرية لم تشتغل بنسجه قبل عصر المماليك

وقد كان متحف فكتوريا وألبرت بلندن ، والقسم الإسلامي من متاحف برلين ، يفتخران بامتلاكهما أكبر مجموعتين من الأقمشة الاسلامية النفيسة ، حتى كشفت دار الآثار العربية في السنين الأخيرة عدداً كبيراً جداً من القطع في المقبرة القديمة بين عين الصيرة والبساتين ، إذ كانت الجثث في المقبرة المذكورة ملفوفة في أقمشة على بعضها أسماء خلفاء عباسيين أو فاطميين ، وأصبحت دار الآثار العربية بعد هذه الاكتشافات أغنى متاحف العالم في الأقمشة الاسلامية ، كما كانت أغناها في الخشب وفي مشكاوات المساجد المموهة بالمينا

وأكبر الظن أن أكثر ما وجد في الحفريات المصرية من منسوجات قد صنع في مصر نفسها ؛ ولسنا نجهل أن الاتصال كان كبيراً بين سورية ومصر في العصور القديمة ، وأن هذا الاتصال لم يضعف في العصر الاسلامي إلا في فترات قصيرة ، وأن مقادير كبيرة من الزجاج المموه بالمينا ومن الأواني النحاسية المكفتة بالفضة نقلت إلى مصر ، وأنه من المحتمل أن يكون ذلك قد قدّر لبعض المنسوجات ؛ ولكن هذا الاستيراد لم يكن ليبلغ درجة تستحق الذكر ، لأن مصر نفسها كانت من أكبر المراكز لصناعة المنسوجات في الشرق الأدنى

وكذلك كانت صقلية خاضعة للخلفاء الفاطميين في شمال إفريقية ، ثم ضم الفاطميون إلى ملكهم مصر وسورية . وكانت صناعة النسج زاهرة في جزيرة صقلية حين حكمها العرب ، حتى لقد يصعب كثيراً التمييز بين الأقمشة المنسوجة في مصانعها والأقمشة المنسوجة في مصر وسورية . وإن صح ما ذكره المقريزي من أن ابنة المعز لدين الله تركت ثلاثين ألف قطعة من نسج صقلية فان ذلك يدل على كثرة ما كانت تنتجه المصانع الصقلية ، ويثبت أن مصر كانت تستورد منها بعض الأقمشة النفيسة ، ولكنا نستبعد أن تكون الواردات من الأقمشة الأجنبية إلى مصر قد بلغت شيئاً كثيراً

ومهما يكن من شيء فان تطور صناعة النسج المصرية كان بطيئاً فى القرون الثلاثة الأولى من الهجرة ، وظلت الزخارف والتقاليد الفنية القبطية غالبة فى العصر الاسلامى ، فترى قطعاً كثيرة من الصوف أو الكتان ذات زخارف متعددة الألوان أكثرها طيور أو حيوانات أو أشكال آدمية صغيرة فى جامات بيضية الشكل أو متعددة الأضلاع وفيها أشكال هندسية أولية وخطوط متقاطعة ودوائر متماسة ، وقد يكون على بعضها صور طيور متقابلة ، أو يولى كل منها الآخر ظهره ؛ وكل هذه القطع عليها مسحة قبطية ظاهرة ، وأكثرها منسوج بطريق «التابستري» Tapestry-weaving process التى لا مجال هنا لشرح تفاصيلها الفنية

وتظهر الكتابة على المنسوجات فى القرن التاسع ، بل هى تظهر فى القرن الثامن ، وإن لم يكن لدينا من دليل يؤيد ذلك إلا القطعة المحفوظة بمتحف فكتوريا وألبرت والتى عليها اسم « مروان أمير المو . . . » وفى اعتقادنا أن المقصود هنا مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية

وقد أحصى الأستاذ ڤييت ما نعرفه فى المتاحف والمجموعات الأثرية من قطع المنسوجات التى عليها أسماء الخلفاء العباسيين ، فوجد أن هناك واحدة باسم مروان ، وواحدة باسم هارون الرشيد ، وواحدة باسم الأمين ، واثنتين باسم المأمون ، وواحدة باسم الواثق ، واثنتين باسم المتوكل ، واثنتين باسم المستعين ، وواحدة باسم المعتز ، وواحدة باسم المهتدى ، وتسع عشرة قطعة باسم المعتمد ، وإحدى وعشرين للمعتضد ، وخمس عشرة للمكتفى ، وتسعاً وثمانين ومائة للمقتدر ، وإحدى عشرة للقاهر ، وأربعاً وخمسين للراضى ، وسبعاً وعشرين للمتقى ، وأربع قطع للمستكفى ، وخمساً وأربعين ومائة للمطيع

وفى العصر الطولونى كانت التقاليد الزخرفية القديمة والقبطية لا تزال تسود صناعة النسج . على أن هناك بعض أقمشة عليها زخارف طولونية ظاهرة على النحو الذى نعرفه فى زخارف الجامع الطولونى ، والأخشاب التى ترجع الى هذا العهد ؛ وأوضح ما تكون هذه الزخارف على المنسوجات فى قطعة بمتحف برلين نشرها الدكتور كونل Dr. Kühnel وتذكر رسومها بما يسمونه الطراز الأول من زخارف سامرا ، وبالزخارف الجصية فى المنزل الذى كشف فى حفريات دار الآثار العربية منذ ثلاث سنين . وليست هذه القطعة فى حالة جيدة من الحفظ ، فان زخرفتها قد سقطت فى بعض أجزائها ، ولكن من حسن الحظ أن متحف ليبزج يمتلك قطعة أخرى من القماش نفسه ، زخرفتها أحسن حفظاً ، وأكثر ظهوراً

وفى دار الآثار العربية قطع عليها رسوم شديدة الشبه بالزخارف الطولونية مما يجعلنا نرجح أنها ترجع إلى هذا العهد . وأجمل هذه القطع معروض الآن فى متحف جوبلان

وتشمل مجموعة دار الآثار العربية عدداً من قطع النسج بأسماء الأمراء الطولونيين . والمعروف أن الجزية التى كانت ترسلها مصر إلى الخليفة العباسى ، ثم الهدايا التى أرسلها ابن طولون إلى الخليفة المعتمد ، والتى أرسلها خمارويه من بعده إلى المعتضد ، كان فيها شيء كثير من المنسوجات النفيسة ؛ ومن هذه القطع واحدة باسم الخليفة المعتمد تاريخها سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) وتشبه قطعة أخرى باسم المعتمد أيضاً وجدتها البعثة الألمانية فى سامرا وهى محفوظة الآن بالقسم الاسلامى من متاحف برلين . وهناك قطعة أخرى باسم الخليفة المكتفى بالله ، والأمير الطولونى هارون بن خمارويه تاريخها سنة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م) وهى السنة السابقة لسقوط الدولة الطولونية

وظل الخلفاء العباسيون فى عهد الأخشيديين يستمدون من مصر أكثر ما يلزمهم من المنسوجات النفيسة المحلاة بكتابات كوفية فيها العبارات والأدعية المعروفة ، بيد أن أسماء الوزراء لم تمد تظهر فى تلك الكتابات

أما فى عصر الدولة الفاطمية فقد عظم اهتمام الخلفاء بصناعة النسج ؛ ويروى المقريزى أن دار يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله زار حوّلت بعده إلى مصنع للنسج ، وصارت تعرف باسم دار الديباج ، وأن وظيفة صاحب الطراز كان لا يتولاها إلا أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسيوف ، وكان تحت إمرته معاونون كثيرون ودار للضيافة تسمى « منظرة الغزالة » لا ينزل إلا فيها إذا ترك مقامه بدمياط أو بتنيس وقدم إلى القاهرة ، « فتجرى عليه الضيافة كالغرباء الواردين على الدولة فيتمثل بين يدى الخليفة بعد حمل الاسفاط المشدودة على تلك الكساوى العظيمة ويعرض جميع ما معه وهو ينبه على شيء فشيء . . . وله

فى بعض الأوقات التى لا يتسع له الانفصال نائب يصل عنه بذلك غير غريب منه ، ولا يمكن أن يكون إلا ولداً أو أخا فان الرتبة عظيمة . . . » (خطط المقريزى جزء أول ص ٤٦٩ — ٧٠)

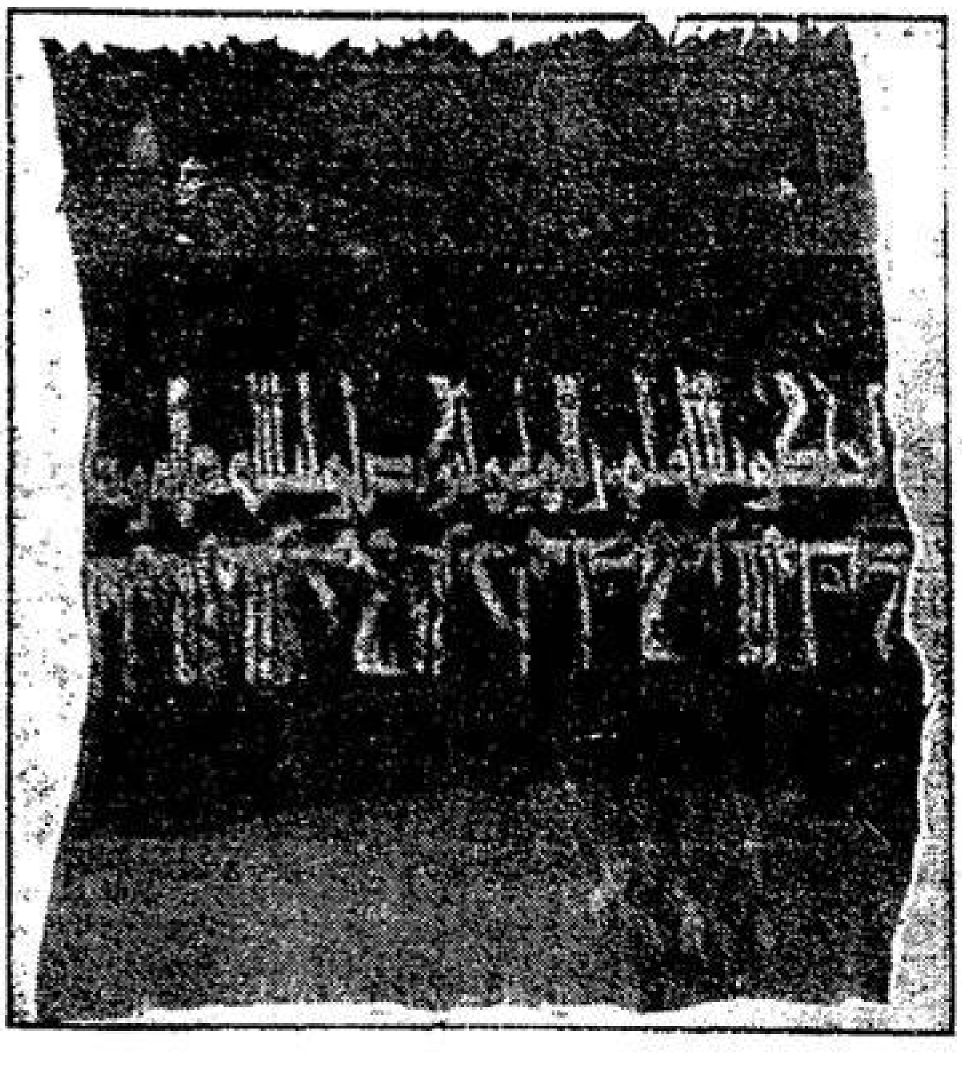
وقصارى القول أن نظام الطراز بلغ من الجودة والدقة فى العصر الفاطمى مبلغاً زاد كثيراً فى كمية منتجاته وفى نفاسة نوعها . وقد كانت هناك أصناف من الأقمشة الغالية المشغولة بالحرير لا تنسج إلا للخليفة نفسه ، ولكن أفراد الرعية كانوا يحصلون على قطع أخرى نفيسة جداً ، فكانت الجلابيب والأقمصة والعمائم والأحزمة تصنع من أقمشة غالية تزينها أشرطة مشغولة بالحرير ، أخذ حجمها فى الزيادة حتى صارت فى القرن الثانى عشر تغطى أكثر الأرضية الكتانية فى الأقمشة

وكثيراً ما أمر الخلفاء بصناعة منسوجات فاخرة لاهدائها إلى الأمراء والملوك الذين كانوا يخطبون ودهم أو تربطهم بهم علاقات الصداقة وحسن الجوار

وقد بدأت بشائر العصر الفاطمى تظهر فى صناعة المنسوجات الاسلامية فى القرن العاشر ، فأخذ الميل يزداد إلى الرقة فى الزخارف والابداع فى تنسيقها ، وسارت الألوان تزداد تدريجياً فى الهدوء والتناسق ، وأصبح فى الكتابة كثير من الرشاقة كما كبر حجم الحروف وصارت سيقانها تتصل ببعضها وينتهى كثير منها فى أعلاه بزخارف صغيرة على شكل وريقات شجر تقليدية

وقد زار ناصرى خسرو الرحالة الفارسى مصر حوالى سنة ١٠٤٠ ميلادية وأعجب بما ينسج فى تنيس من قصب ملون تصنع منه ثياب النساء ، وكذلك العمائم والقلنسوات وقال : إن مثل هذا القصب الجميل لا يصنع فى أى مكان آخر ، وإنه سمع أن أمير إقليم فارس من بلاد إيران أرسل عشرين ألف دينار إلى تنيس ليشترى بها ثوباً من النسج الملكى ، ولكن وكلاءه أقاموا فى مصر سنين عديدة دون أن يحصلوا على بغيتهم — وروى ناصرى خسرو أن مصانع تنيس كانت تنتج نوعاً من القماش يسمى البوقلمون يتغير لونه باختلاف ساعات النهار ويصدره المصريون إلى بلاد المشرق والمغرب

وفى المتاحف والمجموعات الأثرية كثير من الأقمشة بأسماء الخلفاء الفاطميين وخاصة العزيز والحاكم والظاهر والمستنصر . ولعل أبدعها قطعتان من مجموعة صاحب الجلالة مولانا الملك باسم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله : الأولى من شاش أسود وعليها كتابة كوفية بحروف كبيرة فى سطرين متوازيين مقلوب أحدهما . ونص العلوى منهما : « بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله لعبد ... » والسفلى : « الحاكم بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعا ... » وتحت الكتابة شريط من حرير أصفر فيه رسم أزرق مكرر لطائرين متقابلين (شكل ١)



شكل (١) [من مجموعة حضرة صاحب الجلالة الملك]
قطعة من الشاش الأسود باسم الحاكم بأمر الله

والثانية من شاش أسود أيضاً وعليها كتابة نصها فى كل من السطرين : « الله الرحمن الرحيم نصر من الله لعبد الله ووليه المنصور أبى على الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين » وفوق



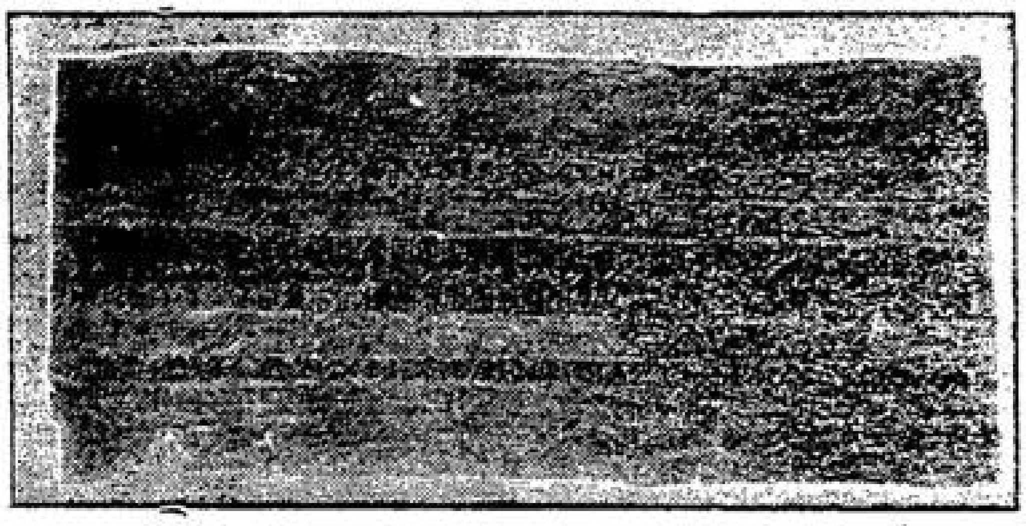
شكل (٢) [من مجموعة حضرة صاحب الجلالة الملك]
قطعة من الشاش الأسود باسم الحاكم بأمر الله

الكتابة شريط من حرير أصفر فيه أيضاً رسم أزرق مكرر لطائرين ، انظر (شكل ٢)

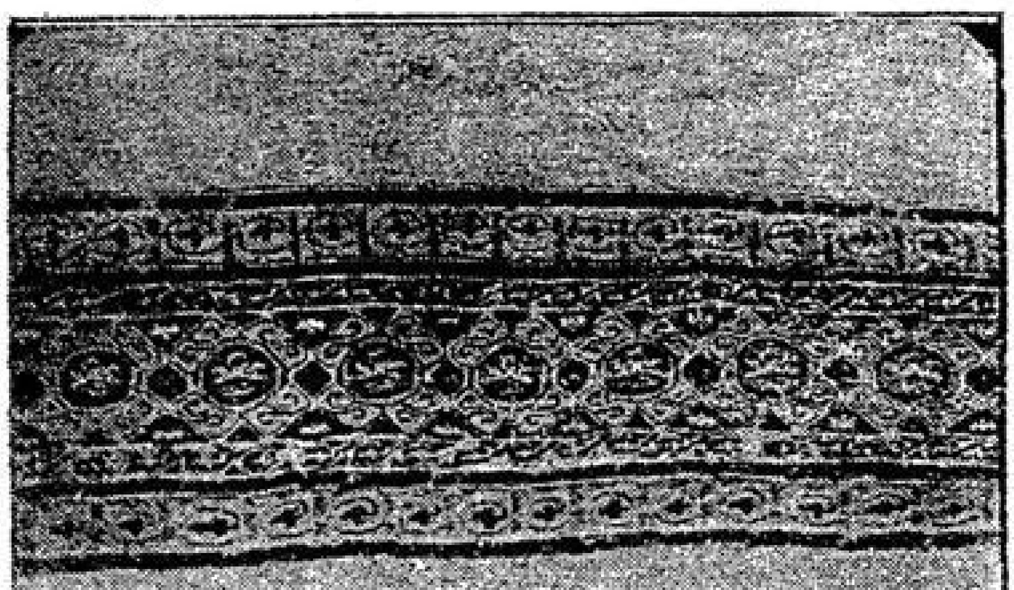
ومما يلفت النظر فى هاتين الطرفتين الملكيتين ما فى كتابتهما من الأخطاء بالرغم من إبداع صناعتهما

ومن أكثر المنسوجات الفاطمية ذيوعاً ثلاثة أنواع أقدمها قوامه أشرطة من الطيور أو الحيوانات وسط جامات بيضية الشكل قد يتداخل بعضها فى بعض

والنوع الثانى عظُم الشغف به فى القرن الحادى عشر ، وألوانه باهتة ، ويسود أرضيته لون ذهبى ، وتزينه أشرطة وجامات متداخلة قد يكثر عددها ، وفيها أيضاً رسوم حيوانات أو طيور تقليدية أو أشكال آدمية ، انظر (شكلى ٣ و ٤)



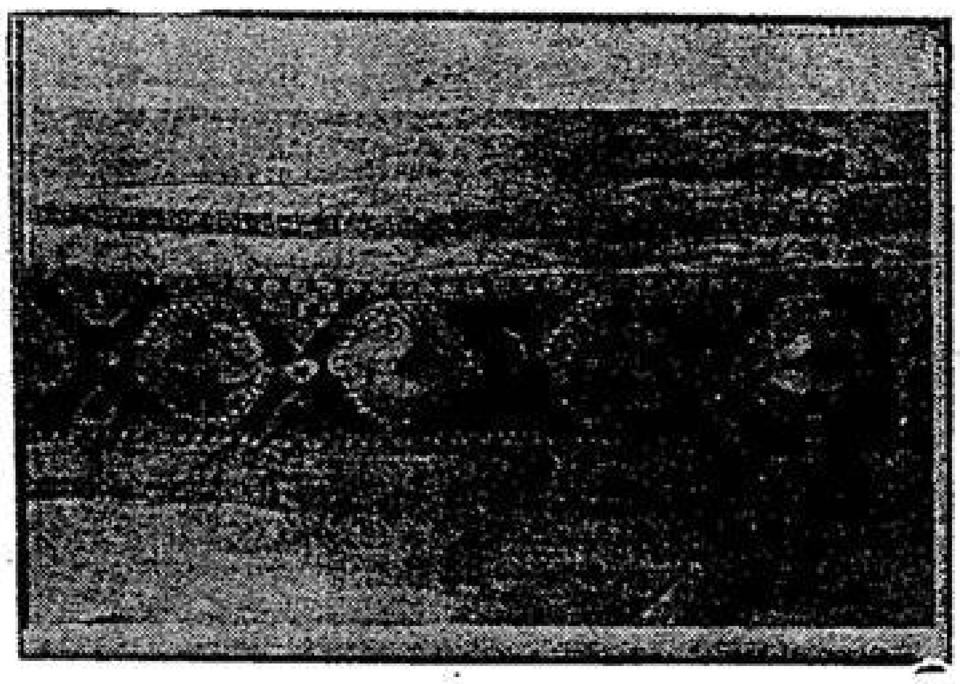
شكل (٣) [من مجموعة حضرة صاحب الجلالة الملك]
قطعة نسيج من العصر الفاطمى



شكل (٤) قطعة نسيج فاطمية من القرن الحادى عشر الميلادى
(مجموعة دار الآثار العربية)

والنوع الثالث يمثل القرن الثانى عشر ، ويسوده اللون الأزرق الغامق ، وتبدأ فيه الحروف الكوفية فى الاستدارة لتصبح حروفاً نسخية ، كما تظهر فى الزخارف الفروعُ النباتية والأرابسك والحروف النسخية التى لا تكوّن كلمات ذات معنى

ومن العبارات التى يكثر ورودها على الأقمشة الفاطمية : « الملك لله » ، و « بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، على ولى الله » ، و « نصر من الله » ، و « العز من الله »



شكل (٥) قطعة نسيج فاطمية من الكتان ترجع إلى القرن الثانى عشر
(مجموعة دار الآثار العربية)

وأما فى العصر الأيوبى فان الزخارف الحيوانية يقل استعمالها وتكثر الكتابة النسخية المشغولة بالابرة ، وكذلك الأشكال الهندسية من مثلثات ومعينات ودوائر . وفى المنسوجات المعروضة بمتحف جوبلان من مجموعة جلالة الملك ومجموعة دار الآثار العربية قطع قد ترجع إلى العصر الأيوبى ، وإن كان الجزم بصحة ذلك ليس من الحكمة ، لأن بين المنسوجات الأيوبية والمنسوجات التى صنعت فى آخر العصر الفاطمى شبهاً كبيراً يجعل من الصعب التمييز بينها

وفى عصر المماليك فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر قضى على نظام الطراز وضعفت بالقضاء عليه صناعة نسج الكتان ، وأصبح الأمر يدور حول نسج الحرير وتطريزه ؛ وتأثرت الصناعة بمنتجات الشرق الأقصى التى أدخلها عصر المغول فى العالم الاسلامى . ولسنا نجهل شهرة الديباج الصينى الذى أشاد ماركوبولو بوصفه فى رحلتــه المعروفة ، ووجد بعضه فى مصر ، كما وجدت أنواع أخرى من الديباج فيها تأثير الصناعة الصينية لدرجة يستحيل معها الجزم بأنها من نسج عمال مصريين ، ولاسيما إن تذكرنا ما نعرفه من المصادر التاريخية عن البعثات التى تبودلت بين الصين ومصر لتحمل ما خف حمله وغلا

ثمنه من المنسوجات الحريرية النفيسة

ونلاحظ أن الرسوم فى النسج الطرز المملوكى تميـل الى الاستدارة نظراً لأسباب فنيـة يطول شرحها ، وأهمها نوع الغرزة التى يسمونها Holbein stitch والتى أخذها الغرب بعد ذلك عن البلاد الاسلامية

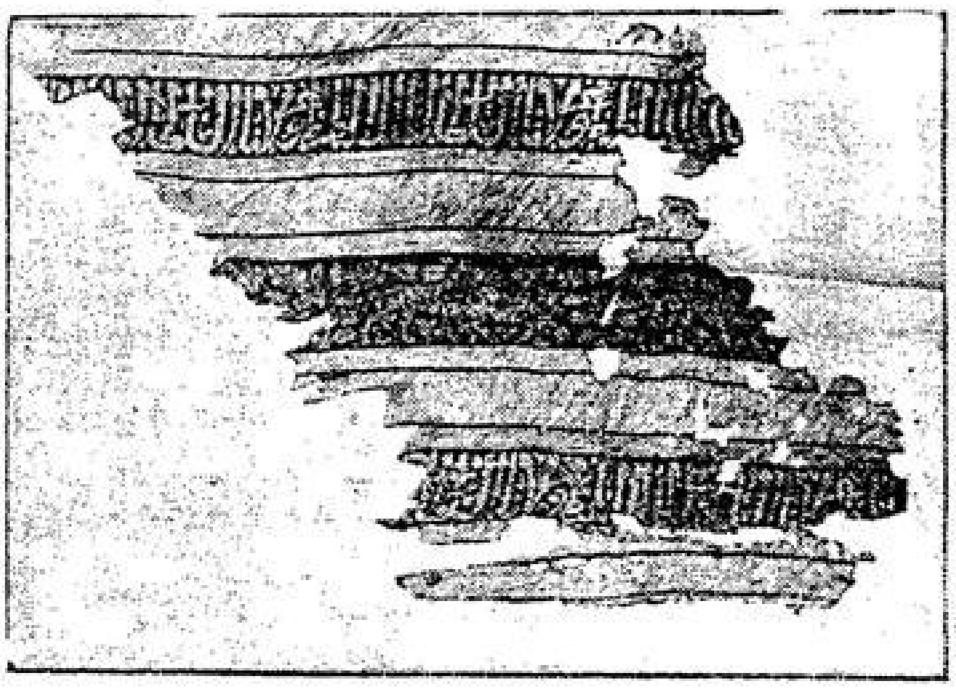
وكثير من الأقمشـة المملوكية المعروفة عليها أسماء بعض السلاطين المماليك وبعض عبارات الأدعيـة نحو : « عز لمولانا السلطان الناصر » ، أو « السلطان الملك الظفر العـالم العامل العادل » ، أو « عز لمولانا السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون » أو « الشرف للأشرف »

وهناك شبه جلى بين زخارف هذه الأقمشة المملوكية وبين كثير من الزخارف التى نراها على قطع الخزف والنحاس التى ترجع إلى العهد نفسه ؛ كما أننا نرى فى بعض الأقمشة المملوكية رسوماً تتكون من أشرطة قد تتعرج فتضم بينها جامات بيضية الشكل فيها صور طيور فى مواقف مختلفة (شكلى ٦ ، ٧



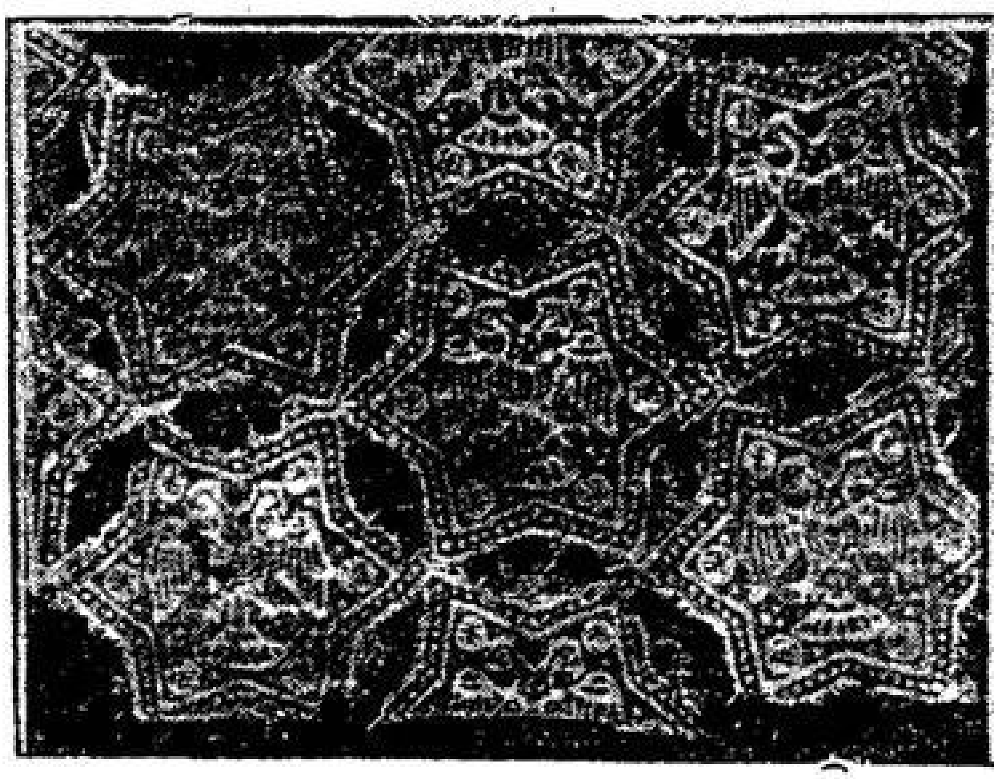
شكل (٦) قطعة نسيج من حرير ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى
(مجموعة دار الآثار العربية)

بقى أن نشير الى نوع من الأقمشة رسومه « مطبوعة » وليست منسوجة أو مشغولة فى القماش نفسه ، وترجع تقاليد هذه الصناعة الى العصر القبطى ، ولـكن الظاهر أنها أهملت فى العصر الاسلامى حتى أواخر حكم الفاطميين حين عاد القوم الى استعمالها فى الأقمشة الـكتانية ، وكانت الزخارف المطبوعة ذات لون واحد حتى جاء العهد العثمانى فظهرت زخارف مطبوعة ذات لونين . ومهما يكن من شىء فان صناعة هذه الأقمشة تشهد بدقة



شكل (٧) قطعة نسيج من حرير أخضر باسم السلطان الملك الناصر
القرن الرابع عشر
(مجموعة دار الآثار العربية)

فائقة ، وقد نقلها الغرب عن الشرق وانتشرت فى أوربا ولاسيما فى ألمانيا بحوض نهر الرين حيث يظهر تأثير الزخارف الشرقية فى المنسوجات « المطبوعة » . وفى دار الآثار العربية بعض أقمشة اسلامية مطبوعة ، وفى اعتقادنا أنها من أحسن الأمثلة المعروفة (شكل ٨)



شكل (٨) قطعة من نسيج «مطبوع» ترجع إلى أواخر القرن الثالث عشر
(مجموعة دار الآثار العربية)

وهكذا يرى القارئ أن ما تفضل جلالة الملك باعارته وما بعثت به دار الآثار العربيـة الى جوبلان لتمثيل تطور صناعة النسج فى مصر الاسلامية وسـيلة جليلة لنشر الدعوة لمصر ، وتعريف الأجانب بفنونها الجميلة

زكى محمد حسن

فريزر ودراسة الخرافة

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور

خطت الدراسات الاجتماعية فى الخمسين سنة الأخيرة خطوات فسيحة : فاتسعت سبلها ، وتعددت فروعها ، وتشعبت مناحيها ، واستطاعت أن تثبت أن لها — كسائر العلوم — موضوعاً محدوداً ، وطرقاً معينة ، ومبادئ ثابتة ، ولا تكاد توجد مادة برهنت على خصبها برهان هذه المادة ؛ كما لا يكاد يوجد علماء خلقوا فناً بأسره فى مدى قصير مثل علماء الاجتماع المحدثين . فان جملة ما كتبه أفلاطون وأرسطو فى العصور القديمة ؛ وما دونه المؤرخون وعلماء الجغرافيا فى القرون الوسطى لا يصح أن يسمى اجتماعاً بالمعنى الصحيح ، ولا يحوى آراء علميــة ناضجة (1) . ولا ننكر أن عصر النهضة ألقى شعاعاً من الضوء على العلوم الاجتماعية ولفت الباحثين إلى فلسفة التاريخ ومقارنة الشعوب بعضها ببعض ، وقد بدأ أثره الواضح فى القرن الثامن عشر إذ ظهرت مؤلفات مونتيسكييه وڤولتير وروسو (2) . ثم جاءت الثورة الفرنسية التى قلبت النظم المألوفة رأساً على عقب واستبدلت بأساليب الحكم والسياسة العتيقة طرقاً مستحدثة ، فأنتجت بهذا ثورة أخرى فى الأفكار والآراء الاجتماعية كان من أبطالها سان سيمون وأوجست كونت (3) . بيد أن تكوين علم الاجتماع فى شكله الحاضر يرجع إلى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فمدرسة ميل وسبنسر فى انجلترة ، وڤونت وڤجنر فى ألمانيا ، ودركيم وليڤى بريل فى فرنسا ، وأعمال السائحين والرحالة من انجليز وأمريكان وألمان أضافت إلى هذا العلم ثروة طائلة ، بل خلقته من عدم (4)

لم تقنع هذه المدارس بطريقة واحدة ، ولم تقف فى بحثها عند حد . فلجأ بعضها إلى التاريخ يشرح به ما غمض من أعمال الجمعية وأقوالها ، وإحساساتها ، وعقائدها . واتخذ بعضها من الأحصاء والتعداد وسيلة لتوضيح الظواهر الاجتماعية واستنتاج القوانين المسيطرة عليها . وأبت طائفة أخرى إلا أن تصعد بالاجتماع إلى مستوى العلوم الواقعية sciences positives فبنته على المشاهدة والملاحظات الدقيقة . لذلك عمدت إلى دراسة الشعوب الهمجية المعاصرة وتتبع عوائدها وتقاليدها ، وتوصلت من ذلك الى نتائج سارة وشيقة للغاية (1) . ومن أهم من عنوا بهذه الطريقة اجتماعيان انجليزيان معاصران ، وهما فريزر وتيلور اللذان كتبا فى خصائص الشعوب مجموعة أبحاث قيمة

يضيق بنا المقام عن أن نترجم ترجمة كاملة لفريزر (Frazer) تلميذ جامعة جلسجو ، وأستاذ الاجتماع فى ليڤربول وكمبردج ، وأحد رجال القانون والمحاماة فى لندن (2) . نشأ هذا العالم متشبعاً — ككل أتباع ميل وسبنسر — بفكرة أن الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين ثابتة ؛ وزاد على أساتذته أن هذه القوانين ممكنة الصوغ والتحديد إذا درست خصائص الشعوب المختلفة ، ولا سيما الهمجى منها . فعلى ضوء هذه الدراســة الموازنة يمكننا أن نبين الأدوار المتتالية التى مرت بها فكرة من أفكار الجمعية ، وأن نقف على منشأ هذه الفكرة وكيفية تطورها . وقد تخصص فريزر فى هذا النوع من البحث ، وتناوله من نواحٍ شتى فى أسلوب جذاب ، وعبارة عذبة ، وخيال رائع ، ومادة غزيرة تشهد باطلاع واسع وعمق كبير ؛ لهذا يعد اليوم — فى حق — من أكبر العلماء المبرزين فى خصائص الشعوب elhnographes (3) ويدور بحثه بوجه خاص حول الديانات فى رسومها وطقوسها لدى الشعوب القديمة والحديثة ؛ وله فى ذلك مؤلفات عديدة أهمها : التوتيمسم Totemism ، والغصن الذهبى The golden Bough ذلك الكتاب العظيم الذى ترجم كله أو أجزاء منه إلى الألمانية والفرنسية والايطالية (4) . وغنى عن البيان أن أبحاثاً كهذه تتصل اتصالا وثيقاً بالخرافة التى لبست ثوب الدين فى كثير من الجمعيات الانسانية

نستطيع أن نقول — دون أن نخشى أية معارضة — إن

(1) Hubert, Les sciences sociales.
(2) Id. Sociologie, p. 6,
(3) Maunier (R.), Introd. à la Sociologie, pp. 91 — 99.
(4) Külpe, Einleitung in die philosophie, 136 — 39,

(1) Hubert, Sociologie, 130 — 35.
(2) Ensy. Brit., t. IX. — Larousse, XXes., t. 3.
(3) Ensy. Italiana, t. XVI. pp. 44 — 45.
(4) Der grosse Brockhaus, VI, 554.

فريزر أضحى أستاذاً غير منازع فى موضوع الخرافة ؛ درسه فى رغبة أكيدة فأجاد درسه ، وقلبه على وجوهه العديدة فلم يدع فيه مجالاً لمن جاء بعده . لم يعن بالخرافات المشهورة فحسب ، بل تعـداها إلى خرافات ثانوية مقصورة على بعض الشعوب ؛ فهو إلى جانب دراسته للسحر والشعوذة وصكوك الغفران وماأشبهها ، يعرض لبعض الأعمال الخرافية المتصلة بالطعام والشراب (١) .

وبالجملة ليس ثمت كتاب من كتبه إلا وفيـه تحليل لخرافة من الخرافات وشرح لسلطانها على المجتمع . ولئن كان قد أعلن إعلاناً كافياً عن مضارالخرافة وسيئاتها ، فهو لم ينس نفعها وحسناتها ؛ ولا ريب فى أنه أول اجتماعى أبان فى وضوح أثر الخرافة الصالح فى الجمعيات الانسانية . وقد وضع فى هذا — فضلا عن أبحاث جزئية مختلفة — كتاباً مستقلاً سماه : محامى الشيطان L'avocat du diable (٢) . ولهذا الـكتاب من اسمه نصيب كبير ؛ فان مؤلفه يبدو فيه المحامى المدره الذى يدافع عن الخرافة دفاع الأبطال ، ويبين مالها من يد فى تـكوين بعض الأسس الاجتماعية . فرجل الدفاع فى محاكم لندن يزج بنفسه فى محكمة الآراء والنظريات لينصر فـكرة أجمع الناس على شرها وذاقوا منها الأمرين ، مهمة شاقة ، وموقف دقيق للغاية ، وكيف لا وفريزر يشذ عن الرأى السائد ، ويخرج على المألوف المسلم به . غير أنه قد وفق الى حد كبير فيما حاوله ، ونهض بالخرافة من كبوتها ، وأثبت ما فيها من نواحى الخير . وما أبلغه حين يقول : « نحن مدفوعون الى اعتبار الخرافة خطأ فى ذاتها ، وشراً لاخير فيه ، وضرراً محقق النتائج . وفى الحق أنها أصل كثير من آلام هذا العالم ، فقد بددت ذخائر هائلة ، وضحت بأرواح لاحصر لها ، وأثارت حروباً شعواء ، وأوقعت الشحناء بين الأصدقاء ، وفرقت بين المرء وزوجه ، والأب وابنه ، مقطعة علاقاتهم بحراب حادة ، أو بما هو أضر منها ، وملأت السجون بالأبرياء ، والمستوصفات والملاجىء بالعجزة والمعتوهين ، وسحقت قلوباً عديدة ، وبلبلت نفوساً مطمئنة . ولما لم تقنع بايذاء الأحياء جاوزتهم إلى الأموات ، فهتكت سترهم ، ونبشت قبورهم ، وأوقعت بهم من العذاب والنكال ما أدمى قلوب الأبناء والأعقاب ؛ صنعت الخرافة كل ذلك وأكثر منه ، بيد أن فى مقدورنا أن نقدمها اليـكم فى صورة أليق ، وتحت ضوء أنسب . لاندعى أنا أهل للدفاع عن هذا « الشيطان » ، والظهور أمام هذا اللهيب الأزرق والغاز الخانق ، وإنما نحاول فقط أن نكوّن ما يصح أن يسميه الرجال السمحاء دفاعاً مقبولاً عن أكبر الخصوم شبهة ، سنعمل مستضيئين بأمثلة مختارة على البرهنة ، أو على الأقل ، على ترجيح هذه القضية . قامت طائفة من الأنظمة الاجتماعية الصالحة باعتراف الجميع أو أغلب الناس على أساس من الخرافة لدى بعض الشعوب وفى بعض مراحل التاريخ (١) »

تخير فريزر بين هذه الأنظمة أربعة من أهمها ، وهى الحـكومة ، والملـكية الشخصية ، والزواج ، واحترام الحيـاة الانسانية ؛ وبذل غاية الجهد فى إثبات أن الخرافة ساعدت على تـكوينها ودعمها مستعيناً فى كل ذلك بالواقع والتاريخ . فلاحظ فى دقة أن مهمة الحـكومة ذللت لدى كثير من القبائل الهمجية المعاصرة بسبب الرأى القائل إن الحكام ينتسبون إلى طبقات سامية ، وينعمون بسلطان سحرى خارق للعادة ؛ وإذ كانوا كذلك وجب على المحكومين أن يخضعوا لهم دون إبداء أية ملاحظة . فلدى سكان جزائر السود Mélanésie فى أفريقية يزعم الناس أن للرؤساء قوى غير طبيعية استمدوها من الملائكة والجن المتصلة بهم اتصالا وثيقاً . وفى هذا سر نفوذهم ؛ فمتى ضعفت هذه العقيدة فقد الرئيس كثيراً من سلطانه (٢) . ويعتقدون كذلك أن الحاكم أو الوالى يستمر بعد موته فى سهره على رعاياه ، ويعاقبهم بالجدب والغرق والصواعق إن أخطأوا ولم يقدموا القرابين لجدثه (٣) .

ويعتبر الرؤساء السياسيون فى زيلندة الجديدة كآلهة أحياء مقدسـة فى مختلف أجزائها بحيث لا يستطيع أحد الاعتداء عليها ، وإذا قدر لمحارب أن يقتل أحد هؤلاء الرؤساء ، سارع إلى عينيه فاقتلعهما وابتلعهما ليأمن شر ما يحيط به من أرواح وقوى خفية ؛ ذلك لأنه يظن أن هذه القوى تسكن هذين

(1) Voir, The magic art and the enolution of kings, 1911.

(٢) تأسف لأننا لم نجد بين أيدينا أثناء كتابة هذه الكلمة النسخة الأصلية الانجليزية لهـذا الـكتاب لنحيل عليها ؛ ولا يفوتنا أن نلاحظ أن ترجمته الفرنسية فى منتهى الجودة

(1) Frazer, L' avocat du diable, 1 — 2.

(2) Codrington, The Melanesians, 46.

(3) Frazer, op. cit., 9.

المضونن (١) ويقول بعض الأمراء الزيلنديين : « لا تظن أني رجل وأني من هذا العالم الأرضي ، كلا فاني نزلت من السماء حيث يسكن آبائي الآلهة ، وسأعود اليهم يوماً (٢) » . ويروون أنه بينما زيلندية تتذوق خوخة جميلة انتزعتها من سلة تحملها ، علمت أنها نبتت في مكان مقدس ، فأسقط في يديها وصاحت بالويل والثبور وأنها لابد هالكة لغضب الآلهة عليها وحكام ذلك المكان القدس ؛ وما أصبح الصباح إلا وقبضت روحها (٣) . ويعتقد سكان أفريقية الغربية أن حياتهم وأموالهم ملك لأمرائهم يتصرفون فيها كما يشاءون . وفي مقدور هؤلاء الأمراء أن يكسفوا الشمس ويخسفوا القمر وينزلوا المطر من السماء ؛ لذلك يلجأ الأهلون اليهم إن ضاقت بهم الحال أو أقفرت عليهم الأرض (٤)

لم يقف أمر هذه العقائد الخرافية عند القبائل البدوية الموجودة في أفريقية واستراليا وأمريكا ، فقد اعتنقها من قبل الشعوب المتحضرة القديمة . فقدماء المصريين كانوا يقدسون ملوكهم ويصعدون بهم إلى أصل سماوى ، وإذا نقصت حاصلاتهم أرجعوا ذلك إلى غضب المليك عليهم (٥) . وفي قوانين مانو الهندية كتبت العبارة الآتية : « إن الملك بفضل سره الخارق للعادة ، نار وهواء ، وشمس وقمر (٦) » . وكان اليونان في عهد هومير يعدون ملوكهم ورؤساءهم آلهة أو كالآلهة (٧) . وما لنا نذهب بعيداً وفي التاريخ الحديث ما يؤيد بعض هذه الخرافات ؟ فقد كان عامة الانجليز يستشفون بملوكهم إلى عهد قريب ، فاذا لمس الملك مريضهم برىء لساعته ، واستمرت هذه الخرافة إلى أخريات القرن الثامن عشر إذ كان يعالج روبير الصالح ، وأدوارد المعترف ، بعض المرضى بهذه الطريقة (٨) . ونرى في فرنسا شيئاً من ذلك في فجر الثورة وبعدها بعشرات السنين ؛ فان لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر وشارل العاشر لمسوا آلاف

(1) Taylor, New-Zealand and its inhabitants, 134,352.
(2) Thomson, The Story of New - Zealand, I, 95.
(3) Brown, New-Zealand, 76.
(4) Frazer, The magic art, I, 342.
(5) Ibid, I, 418— Tiele, History of the Egyptian religion 103.
(6) The Laws of Manu, VIII, 5 — 8.
(7) Homère, Odysseé, II, 235.
(8) Crawfurd, The King's Evil, 11.

المرضى لشفائهم (١)

هذه الأمثلة القليلة تكفي للبرهنة على أن عدداً من القبائل والشعوب نظروا إلى قادتهم ورؤسائهم وملوكهم نظرهم إلى موجودات ممتازة مزودة بقوى عظيمة ترغم الرعية على اتباعهم والتملق بأهدابهم ، وإذاً فقد ساعدت الخرافة ، في بعض الشعوب وفي بعض الأزمنة ، على احترام الحكومة وخاصة الاستبدادية ؛ وفي هذا ما أعان على تثبيت دعائم النظام الجمعي بوجه عام

يتبع

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور في الآداب والفلسفة

(1) Ibid, 144.

أثر خطير

كنيس الصالحية

للأستاذ عز الدين التنوخي

كاتب سر المجمع العلمي العربي

دويٌّ في دمشق تلهج به الألسنة ويردّده الهواء بين الأحياء، وصدى الدهر يُثير من النفوس روائع الدهشة، ويبعث فيها نوازع الاستطلاع، ويُعين على تمكين ذلك من النفس التاريخُ بابتعاده، والتخيل بامتداده، مئات من السنين، ومئات من الشعوب والقبائل والأجيال تمرُّ وتنطوي على كنيس الصالحية ما بين دير الزور وأبي كمال، وهو (منذ أُسس بنيانه سنة ٢٤٤ ب. م) لايزال قائماً بفارع جدرانه، وماثلاً برائع ألوانه، يُعرب بلسان الزمن عما مرّ بالبشر من أيام هناء وبلاء، مخبراً عن أمم زالت، ودول دالت، وأحوال حالت، مما يمحص به أبناء العصر الحاضر حقائق الدهر الغابر، فينقلب به ما كان حقيقة وهماً، وما كان وهماً حقيقة

كنيس الصالحية، وما أدراك ما كنيس الصالحية، رأيت ألواحه الجبسية المقطوعة بالمنشار متفرقة، وهي أوصاله بل أشلاؤه الممزقة، فراعني — لعمر الحق — منظرها، وأكبرت بعد التأمل الطويل مخبرها، ثم تصورت هذا الكنيس الأثري النفيس، وقد التأمت بجوار السليمانية غداً أجزاؤه، والتحمت بعد طول الشتات والبلى أشلاؤه، فملك بتصوره القلب قبل الطرف، وألهج اللسان باستحسان ما لا يحيط به الوصف البارع واللسان المبين: ذلك أن صور تلك الألواح لاينقصها لاتقانها إلا الأرواح المثيرة، والقوى المجيرة، فتغمزك بعيونها، وترمز اليك بشفاهها، وتحدثك بأفواهها عن جلية أحوالها، وأخبار رجالها ونسائها وأطفالها، ولو أنها استطاعت ذلك لأغنت المنقبين والمؤرخين عن كثير من التنقيب والاستقراء والانفاق المستمر الفادح، والعناء المتواصل المنهك

أجل، هذه الألواح لاينقصها إلا الأرواح، فان لكل منها جهارة رائعة، وشارة جميلة، الى وجه ساميٍّ مسنون، وأنف أقنى، وعينين ناطقتين في صورة انسان سبط القوام، متناسب الأعضاء، تلمح عليه دلائل القوة والفتوة، وتلمع في عينيه شواهد النبل والفضل

ففي لوح مستطيل منها ترى صورة موسى النبيّ بيده الألواح وهو بوجهه المخروط الصبيح، يشبه السيد المسيح، تحيط به هالة قاتمة اللون من شعر رأسه الفاحم ولحيته السوداء، وكان لآلهة الاغريق لِحىً تزيد في هيبة الوجوه ووقارها

وفي لوحٍ آخر تشاهد صورة السموءل وهو النبيّ (صموئيل) يمسح بالزيت رأس النبي داود الواقف بين إخوته الستة قابضاً بيمناه يُسراه كما يقبض المصلِّي إذا صلى

وفي لوح ثالث آخر صورة أحشويروش (الملك الأسد) ملك فارس وبابل وزوج إستير وقد استوى على عرشه المخمّس الدرجات، وعلى يساره الملكة إستير مُنقِذة إسرائيل، وهي على عرشها؛ وعلى جانب كل عرش صورة أسد أو نسر من ذهب، وعلى واجهة إحدى الدرجات قد نقش اسم الملك (أحشويروش) فاذا أراد الملك الصعود نحو عرشه وقف على الدرجة السفلى فترتفع به حتى تساوي الثانية التي فوقها، فينتقل إليها فترتفعُ به إلى الثالثة، والثالثة ترفعه إلى الرابعة، وهذه إلى الخامسة، فيستوي هنالك على عرشه العظيم، وبذلك يشبه هذا الدرج العجيب مصعدة (أسانسور) هذا العصر؛ ويقال إن هذا العرش هو عرش سليمان مسلوباً من بيت المقدس، إذ وجد فوقه لوح آخر يمثل سليمان الحكيم على عرش لا يختلف بشيء عن العرش البابلي مما يرجح القول بنقله إلى بابل، وعلى يسار هذا اللوح لوح آخر يمثل ابن عم الملكة إستير وهو مردخاي ممتطياً صهوة جواد أشهب مطهم يقوده هامان الوزير قصاصاً له وانتقاماً

وهنالك لوحٌ آخر مؤلف من سبع قطع، تمثل إلياس النبي مع أسباط إسرائيل، وهو يدعو الله أن يحيي له ثلاثة من الموتى فيبعث الله لانماشهم أرواحاً ثلاثاً، والروح منها ممثلة بشكل امرأة تطير بجناحيها، وتهبط هذه الأرواح على أجسادها فتهبّ من رقادها، وعلى رأس أحدهم يد بمعصمها ترفع الميت المنتشر من وفرة رأسه

ومن تلك الألواح ما يمثل موسى عليه السلام طفلاً تخرجه من اليم ابنة فرعون وقد ذهبت مع جواريها تغتسل في النيل فوجدته عائماً في سفط يتغلغل بين أوراق البردي ، وإلى جانبها جاريتان تحمل إحداها صندوقة صغيرة تشتمل من أدوات الطيب على مالا غنى للمغتسل عنها ، وهي عادة مصرية قديمة

كانت كنائس اليهود قبل عهد هذا الكنيس لا تستوعب أكثر من ٤٥ مصلياً ، ولكن قاعة هذا الكنيس المستطيلة تستوعب ضعف هذا العدد ، أي نحو مائة من المصلين ، فقد كانت أبعادها (١٣,٥ متراً طولاً في ٧,٥ عرضاً في ٧,٥ ارتفاعاً)

ومما يدل على أبهة هذا الكنيس النفيس أن محرابه القائم في صدره قد كان يزهو بطنافس فارس الجميلة ، وتبصر على جانبه صورة شمعدان من الذهب ذي سبع شعب ، في كل شعبة منها شمعة تبدد بعض ظلام الكنيس ؟ وكانت مقاعد المصلين مغشاة أيضاً بالطنافس كما استدل علماء الآثار على أن سماءه (سقفه) كانت مشيدة بالقرمد المزين المنقوش ، وكانت أرضه مفروشة أيضاً بنفائس الطنافس

هذا ولئن كانت الأمم تقاس برجالها ، والرجال توزن بأعمالها ، فقد حق علينا أن نختم هذه الكلمة بكلمة أخرى عادلة في شكر من كان سبباً لحفظ هذا الكنيس في بلادنا ولاعادة بنائه في دمشق غداً ، وهو صاحب المعالي وزير معارفنا الهمام السيد حسني البرازي ، فقد حاولت بعثة الحفر والتنقيب الأمريكية أن تستأثر به وتحرم من الانتفاع به تلك الأمة التي نبش من ترابها ، ليُنبئ عن عمرانها وأحوال أديانها وآدابها ، وكادت تفلح لولا جهاده الميمون وحسن مساعيه لدى المفوضية التي حققت بأخيرة أمنيته ، فخدم بذلك أجل خدمة بلاده وأمته : ذلك لأن هذا الكنيس المنقطع القرين لم تفتح العين على مثله بعد ، ولهذا يقدر بعض علماء الآثار ثمنه بأكثر من مليون جنيه ، ويعدونه استثناء أثرياً لقواعد الكنائس اليهودية التي تحرم التصوير ، وما كانت صوره هذه المحرمة بعظيمة الخطورة لدارسي تاريخ الشريعة فحسب ، إذ هي لدارسي تاريخ الفن أعظم خطراً ، وأبلغ لعمري أثراً

دمشق

عز الدين التنوخي
كاتب سر المجمع العلمي العربي

١٦ ـ قصة المكروب
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور احمد زكي
وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

صلة حديثه

وذهب « جرنيه » إلى الشمال يدرس دود القز في مدينة فالنسين Valenciennes ، فكتب اليه بستور أن يعيد إجراء التجربة الفائتة . سأله هذا ولم يدر لم سأله ، وكان جرنيه قد حصل على مجموعة طيبة من الدود السليم ، وكان يعتقد على الرغم من تشكك أستاذه أن تلك الكريات التي في باطن الدود ليست سوى أحياء تتطفل عليه فتقتله . فأخذ أربعين دودة سليمة وغذاها بأوراق من التوت لم يمسها أبداً دود مريض ، فخرج من هذه الأربعين سبع وعشرون دودة نسجت سبعاً وعشرين شرنقة . وخرج الفراش من الشرانق خلواً من الكريات ، فعندئذ عمد إلى فراشات مريضة فسحقها ولوث بسحيقها أوراقاً من التوت ، وغذى بهذه الأوراق دويدات سليمة صغيرة ، عمرها يوم واحد ، فلم تلبث هذه الدويدات أن مرضت وهزلت وماتت موتة بطيئة . وتغطى جلدها بالبقع السوداء ، وامتلأ جسمها بكريات الداء . وبعد هذا لوث أوراقاً أخرى بسحيق الفراش المريض وغذى بها دوداً سليماً نامياً بالغاً كان على وشك أن ينسج الشرانق . فهذا الدود عاش حتى أتم نسج ثوبه الحريري ، ولكنه لما استحال إلى فراش خرج هذا الفراش وبجسمه الكريات اللعينة ، وباض فكان البيض فاسداً . فسر « جرنيه » وثار ، وزاد سروره وزادت ثورته في الليالي التي أكب فيها على مكرسكوبه كلما رأى هذه الكريات تزيد في الدود كلما زاد انضماراً وقارب الفناء

وأسرع « جرنيه » الى بستور يصرخ له : « حلت المسألة ! فهذه الكريات حية ! إنها طفيليات ، وهي التي تمرض الدود ! »

واستغرق بستور ستة أشهر ليقتنع بمقالة « جرنيه » . ولكنه

لما اقتنع وقع على العمل وقوعاً . وجمع أعضاء اللجنة مرة أخرى وخطب فيهم : « إن الكُريات التي بالدود ليست عرضاً من أعراض الداء فحسب ، بل هي سببه ، وهذه الكُريات حيّة ، وهي تتزايد ، وهي تسير في جسم الفراش المريض اغتصاباً حتى تعمّ نواحيه . وإنما كان خطأنا الأول لأننا طلبنا هذه الكريات في جزء صغير من جسم الفراش فنظرنا تحت جلد البطن وحده ، أما الآن فلا بد من سحق الفراش كله وفحصه من بعد ذلك ، فاذا نظرنا بالمجهر إلى سحيقه فلم نجد به تلك الكُريات المجهريّة حكمنا بسلامته واتخذنا بيضه للتفريخ في الربيع المقبل »

وتفرق رجال اللجنة واتبعوا تعاليم بستور فنجحت التجربة ، ودار العام فأفرخ البيض دودا صحيحا قوياً نامياً أعطاهم غلّة من الحرير وافرة

استيقن بستور الآن أن هذه الكريات الطفيلية سبب الداء وأنها لاتنشأ داخل الدود ، وإنما تأتيه من الخارج . فطاف في الريف يعلم الناس كيف يمنعون نسل الدود السليم من أن يمس أوراقاً مسها دود سقيم ، وبينا هو في هذا أصابه نزيف في المخ فكاد يموت . ولكنه سمع أنهم أوقفوا بناء معمله الجديد اقتصادا وفي انتظار موته ، فأغضبه ذلك وأصر على أن يعيش . وشُلّ أحد نصفيه شللا لم يشف منه تماما في مستقبل أيامه ، ولكنه قرأ كتاب الدكتور « سمايلز » في الاعتداد بالنفس ، فاعتزم اعتزاماً قوياً أن يعمل على الرغم من عجزه ؛ فبدل أن يرقد في فراشه ، أو يستشفي على البحر ، نهض في عسر على قدميه ، وحَجَل إلى القطار ، وسافر إلى جنوب فرنسا وهو يصيح غاضباً : « إن من الاجرام القعود عن تخليص الدود من الوباء ، بينا الكثير من أربابه يطلبون القوت فلا يجدونه » فأعجب به الفرنسيون وأكبروه إلانفراً قليلاً يحبون الأذى ؛ فهؤلاء قالوا : إنما هي صيحة قصد بها الدعاية لنفسه لا خير الناس

وقضى بستور ست سنوات يجاهد أدواء هذا الدود المسكين ، فانه لم ينته من علاج ندوته حتى ظهر به مرض جديد ، ولكن بستور كان قد دَرِب على هذا النوع من البحث فكشف عن مكروب الداء سريعاً ، وجاءه دوماس الشيخ يشكره وقد امتلأت عيناه بالدموع . وتحدث عمدة « ألياس » عن اقامة تمثال من الذهب لبستور العظيم

— ٧ —

وبلغت سنه الخامسة والأربعين ، فأخذ ينعم حيناً بالمجد الذي كسبه من تخليص صناعة الحرير مما حاق بها ، وذلك بعون الله وعون « جرنيه » . ثم رفع عينيه الى مجد أسمى ، وأمل أسنى ، وحُلُم مستحيل برّاق ، حُلُم من تلك الأحلام التي ارتأتها نفسه الشاعرة ، حلم من تلك الأحلام المستحيلة التي قد لاتضن الأقدار ببعض تحقيقها أحياناً ؛ ثم رفع عينه الفنانة من أمراض الديدان إلى أحزان الانسان ، ونفخ في البوق نفخة داوية يبشر المرضى البائسين بقرب بلوغ دار الأمان ، قال : « إن في مقدور الانسان أن يمسح عن وجه الأرض كل الأدواء التي يسببها تطفل الأحياء عليه ، هذا على فرض أن نظرية النشوء التلقائي نظرية باطلة ، وأنا واثق من بطلانها »

وجاء عام ١٨٧٠ بحصار باريس في ذلك الشتاء القارس ، فخرج عنها تاركا أعماله ، تاركا معامله ، وذهب الى قريته القديمة في جبال « الجورا » . ثم ذهب الى ميدان القتال يبحث بين الأشلاء عن جثة ابنه الصريع ، وقد كان جاويشا في الجيش الفرنسي . وعلى هذه الأرض ، وبين هذه الدماء ، نشأ فيه كره للألمان ولكل شيء ألماني أخذ ينمو فيه ثم ينمو ويفيض حتى تشرب به كل عصب من أعصابه ، وبقي معه بقية حياته . واتخذ من أجل ذلك الوطنية صناعة . وأخذ يصرخ في الناس : « إن كل مؤلف من مؤلفاتي سيطالعكم عنوانه بكراهة بروسيا ، ويناشدكم الثأر والانتقام . » وبسخافة فاخرة بدأ بحثه الأول لجعله للثأر والانتقام . واعترف أن بيرة فرنسا دون بيرة الألمان ، فنهض يبحث ليجعل بيرة فرنسا فوق بيرة الألمان ، بل فوق بيرات الأمم جمعاء

وقام برحلات كثيرة واسعة المدى الى مخامر فرنسا الشهيرة ، وأخذ يلقي الأسئلة الى كل من يلقى فيها ، من رئيس الخمارين في معمله ، الى غسّال الأواني البسيط في مغسله . وذهب الى انجلترا فأسدى النصائح الى الرجال الفنانين ذوي الوجوه الحمر الذين يحذقون صنع النبيذ الانجليزي ، والى الخمارين الذين يخرجون تلك الجمات القدسية بمدينة برتُن Burton . وحرّر مجهرَه الى الألوف من البيرات ، ورقب الخمائر وهي تتقسّم وتصنع الكحول . وكان يقع أحياناً فيها على هذا الحُسَيّ اللعين الذي وجده فيها أعواماً مضى وأثبت أنه سبب فسادها ، وكان ينصح

لأصحابها بتسخين البيرة لقتل هذه الحيّيّات ، ويؤكد لهم أنهم لو فعلوا إذن لزادت بيرتهم جودة وطابت مذاقا ، وإذن لاستطاعوا تسفيرها مسافات بعيدة وهى صالحة . وكان يسأل أصحاب المخامر مالاً لمعمله ، ويذكر لهم أن ما يجودون به اليوم يعود عليهم بالنفع فى الغد أضعافاً مضاعفة . وبهذا المال قلب معمله بمدرسة النرمال إلى مصنع علميّ صغير للبيرة ، لمعت فيه البراميل النحاسية الجميلة ، ووهجت الغلايات الصقيلة

وبدأ عملاً مجهداً متواصلاً ، ولكنه لم يلبث أن سئمه ، لأنه كان يكره طعم البيرة كما يكره رائحة الطُبّاق . وزاده منه سأماً أنه وجد أن الباحث العالم فى البيرة لابد له من أن يكون ذوّاقاً حكيما لها . ووجد كذلك أن البيرة الجيدة تحتاج فى صناعتها إلى أمور أخرى غير منع المكروب من دخولها . وكان لعلم الفيزياء أستاذ يدعى برتان Bertin ، كاد يضحك من بستور لكراهته إياها . كان بستور كلما أراد مذاقها جعّد من أنفه الأفطس ، وغاص بشاربه فى كوزها الراغى ، وبلع فى عسر وكآبة ما تحتم بلعه من جرعاتها . كره البيرةَ ما فسد منها وما طاب . أما صديقه الفيزيائى فكان يلعق شفتيه بعد شربها وبصفقهما ، ويتهلل وجهه بشرا وتمتلئ أساريره خبثاً وهو يضاحك بستور فيها ، لأنها بيرة ذاقها بستور فحكم عليها بالفساد . حتى لضحك منه مساعده الشاب ، ولكنه لم يجرؤ بالطبع أن يضحك فى وجهه . مسكين بستور ! كان بحاثاً قديراً ، ولم يكن فيه جمود ، ولم يكن فيه ركود ، وكان سريع التحوّل ، سريع التشكل للظروف ، سريع الألفة لكل جديد -- إلا البيرة . فحب البيرة كأنه يخلق ولا يكتسب . واللسان الذوّاق للبيرة تجود به الطبيعة على قليل من الناس ، كالأذن الموسيقية ليست متاعاً لكل أحد

ومع هذا فلست أنكر أن بستور أعان صناعة البيرة الفرنسية إعانة كبيرة ، وقد شهد بهذا الخمارون أنفسهم ، أما الذى أتشكك فيه فهو الذى يقول به أحبابه ومريدوه وعُبّاده من أنه رفع البيرة الفرنسية فجعلها ندّ الألمانية . على أنى لا أنكر ذلك عليه ، ولكني أود لو عُرضت هذه الدعوى على لجنة تحكيم من تلك اللجان العادلة الدولية الوقورة ، من تلك اللجان الذى كان بستور نفسه يقترح على الدنيا أن تلجأ اليها كلما أزمته خصومة لتقضى له أو لخصمائه اللعينين . . .

(يتبع) أحمد زكى

٢٥ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الاستاذ زكى نجيب محمود

ـ كذلك كلما ازدادت البرودة على النار فاما أن تتراجع أو تفنى وإذ تكون النار تحت تأثير البرودة ، فلن يلبثا ناراً وبرودة ، كما كانت الحال من قبل

قال : هذا حق

ـ وفى بعض الحالات لا يكون اسم المثال (Idea) مقصوراً على المثال ، بل إن لكل شىء آخر حق المشاركة فى الاسم ، ما دام موجوداً فى صورة المثال ، من غير أن يكون هو المثال ، وسأسوق إليك مثلا لعلى أوضح هذا القول : أليس يطلق دائماً اسم الفردى على العدد الفردى ؟

ـ جد صحيح

ـ ولكن هل هذا وحده هو الشىء الذى يسمى بالفردى ؟ أليس ثمت أشياء أخرى لها أسماؤها الخاصة بها ، ويطلق عليها رغم ذلك اسم الضرورى ، لأنها وإن كانت ليست هى الفرديّة ذاتها ، غير أنها لاتخلو من الفردية قطعاً ؟ ـ هذا ما أريد أن أستجيب عنه ـ أليست الأعداد ، كرقم ثلاثة مثلاً ، من نوع الفردى : وهناك غير هذا كثير من الأمثلة : ألست تقول مثلاً إنه يجوز أن يدعى رقم الثلاثة باسمه الأصلى ، ثم يطلق عليه كذلك اسم الفردى ، وليس الفردى هو الثلاثة ذاتها ؟ وليس يقال هذا عن العدد ثلاثة فقط ، بل إنه جائز أيضاً على خمسة ، وعلى كل الأعداد المتعاقبة ـ كل منها فردى دون أن يكون هو الفردية ؛ وهكذا قل فى اثنين وأربعة وسائر سلسلة الأعداد المتعاقبة ، كل عدد زوجىّ دون أن يكون هو الزوجية . هل تسلم بهذا ؟

قال : نعم ، وهل إلى انكاره من سبيل ؟

ـ ألق بالك إذن إلى الغاية التى أنشدها ؛ ليست الأضداد المعنوية وحدها هى التى يطرد بعضها بعضاً ، بل كذلك الأشياء المجسدة التى وإن لم تكن متضادة فى ذاتها إلا أنها تحتوى أضداداً ؛

وأنا أزعم أن هذه الأشياء أيضاً ترفض المثال (idea) الذي يكون مضاداً لما تحتويه في داخلها ، وهي إذا ما تقدم ذلك فاما أن تنسحب أو تفنى . خذ عدد ثلاثة مثلاً ، أليس يصبر على التلاشي أو أي شيء آخر ، أهون عليه من أن يتحول الى عدد زوجي مع بقائه ثلاثة ؟

فقال سيبيس : جد صحيح

قال : ومع ذلك فلا ريب في أن العدد اثنين ليس مضاداً للعدد ثلاثة ؟

ـ انه لايضاده

ـ إذن فليست المُثُل المتضادة وحدها هي التي يقاوم بعضها تَقدمَ بعض ، ولكن ثمت أشياء أخرى تقاوم كذلك اقتراب الأضداد ؟

ـ فقال : هذا جد صحيح

قال : هبنا نحاول تحديد ماهية هذه (الأشياء) إن أمكن ذلك

ـ لاريب في هذا

ـ أليست هذه ياسيبيس تُرْغم الأشياء التي في حوزتها على أن تتخذ شكل بعض الأضداد فضلا عن شكلها هي ؟

ـ ماذا تعني ؟

ـ أعني ، كما كنت أقول الآن تواً ، وماليس بي حاجة لاعادته اليك ، إن الأشياء التي يملكها العدد ثلاثة ، لايلزم فقط أن تكون ثلاثة في عددها ، بل ينبغي كذلك أن تكون فردية

ـ جد صحيح

ـ ويستحيل على المثال المضاد أن يعتدي على هذه الفردية التي انطبع العددُ ثلاثة بطابعها ؟

ـ كلا

ـ وهو إنما استمد هذا الطابع من عنصر الفردي ؟

ـ نعم

ـ والزوجي والفردي ضدان ؟

ـ حقاً

ـ إذن فمثال العدد الزوجي لن يلحق بثلاثة أبداً ؟

ـ كلا

ـ وإذن فليس لثلاثة في الزوجي من نصيب ؟

ـ كلا

ـ إذن فالثلاثي أو العدد ثلاثة غير زوجي

ـ جد صحيح

لأعُدْ إذن إلى ما زعمتُه من تمييز بين الطبائع التي ليست أضدادا وهي مع ذلك لا تقبل أضداداً : فكما في هذا المثال : على الرغم من أن ثلاثة ليست مضادة للزوجي إلا أنها لا تقبل شيئاً من الزوجي أبداً ، ولكنها دائماً تعرض الضد في الجانب الآخر أو كما أن اثنين لا تتقبل الفردي ، أو النارُ البرودة . ومن هذه الأمثلة (ومنها كثير غير هذا) ربما استطعت أن تصل إلى نتيجة عامة أنه ليست فقط الأضداد هي التي لا تتقبل أضداداً ، بل كذلك لاشيء مما يسوق الضد يقبل ضد مايسوقه فيماسيق اليه . واسمح لي هنا أن ألخص ماسبق من قول ـ فليس في التكرار من ضرر ، لن يقبل العدد خمسة طبيعة الزوجي ، أكثر مما تقبل عشرة ، وهي ضعف الخمسة ، طبيعةَ الفردي ـ ولو أن الضعف ليس مضاداً للفردي تضاداً دقيقاً ، غير أنه يرفض الفردي إجمالاً . ولن تقبل كذلك أجزاءُ النسبة ٣ : ٢ فكرةَ الكل ، وكذلك أي كسر يكون فيه نصف ، لا بل والذي يكون فيه ثلث ، ولو أنها ليستْ مضادة الكل ، هل تسلم بذلك ؟

فقال : نعم اني متفق تماماً ، وذاهب معك الى ذلك

قال : أظنني الآن أستطيع أن أبدأ ثانياً ، واني لأرجوكم أن تُدْلوا إليّ عن هذا السؤال الذي أوشك أن ألقيه ، بجواب غير الجواب القديم المأمون ، وسأقدم لكم لما أريد مثالاً ، وعسى أن تجدوا أساساً آخر فيما قيل الساعة تواً يكون مأموناً كذلك ، أعني أنه لو سألكم أحد : « ما هو الشيء الذي يجعل الجسم حاراً بحلوله فيه ؟ » فستجيبون أنه ليس الحرارة (وهذا ما أدعوه بالجواب المأمون)

ولكنه النار ، وهو جواب يفضل ذلك كثيراً ، ونحن الآن مهيأون للأدلاء به . أو لو سألكم أحد : « لماذا يعتل الجسد ؟ » فلن تقولوا من المرض بل من الحمى ، وفي مكان القول بأن الفردية هي سبب الأعداد الفردية ستقولون إن الجوهر الفرد هو سببها . وهكذا في الأشياء بصفة عامة . أحسب أنك ستفهم ذلك فهماً جيداً بغير أن أسوق اليك أمثلة أخرى ؟

ـ فقال : نعم إني أفهم ما تقول فهماً جيداً

(يتبع) زكي نجيب محمود

٥ - شاعرنا العالمي

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

وكان أبو العتاهية في عهد المهدي يلازم ابنه هارون ، وكان ابنه وولي عهده موسى الهادي يجد على أبي العتاهية لملازمته أخاه ، فلما ولي الهادي بعد المهدي أراد أن يقصيه عن أخيه هارون فلم يطعه ، ثم أمره أن يخرج معه إلى الري فأبى ذلك ، ولكنه لم يلبث أن خافه وتهيب بطشه به ، وكانت الملوك في عهده لا تحتمل مثل هذا النوع من المخالفة ، والاعتداد بالكرامة النفسية ، والمحافظة على العهد في حالتي الأمن والخوف ، فقال يستعطفه :

ألا شافع عند الخليفة يشفع … فيدفع عنا شر ما يُتَوَقَّعُ
وإني على عظم الرجاء لخائف … كأني على رأسي الأسنة تشرع
يرَوِّعني موسى على غير عثرة … ومالي أرى موسى من العفو أوسع
وما آمنٌ يمسي ويصبح عائذاً … بعفو أمير المؤمنين يرَوَّع

وإنك لترى أبا العتاهية لاينزل في هذا الاستعطاف إلى الاستخذاء والخنوع ، ونسيان الكرامة وعزة النفس ، فلا يقول في ذلك ما قال النابغة الذُّبياني قبله للنعمان بن المنذر :

فإن أك مظلوماً فعبد ظلمتَهُ … وإن تك ذا عتبي فمثلك يُعتِب

بل يقول له هذا القول : (يروعني موسى على غير عثرة) ، فينصف نفسه في هذا الموقف الذي تجحد فيه النفوس ، ولا يرى حقا للهادي في ترويعه على غير ذنب جناه ، كما يرى النابغة للنعمان أن يظلمه لأنه عبده

وقد روى صاحب الأغاني بعد ذلك أنه ولد للهادي ولد في أول يوم ولي الخلافة ، فدخل أبو العتاهية فأنشده :

أكثرموسى غيظَ حساده … وزين الأرض بأولاده
وجاءنا من صلبه سيد … أصيدُ في تقطيع أجداده
فاكتست الأرض به بهجة … واستبشر المُلْكُ بميلاده
وابتسم المنبر عن فرحة … علت بها ذروة أعواده
كأنني بعد قليل به … بين مواليه وقواده
في محفلٍ تخفق راياته … قد طَبّق الأرض بأجناده

فأمر له الهادي بألف دينار ، وطيب كثير ، وكان ساخطاً عليه فرضي عنه

فإذا صحت هذه الرواية فلا بد أنه عاد فسخط عليه حين رآه لم ينقطع عن أخيه هارون ، وحين أمر أن يخرج معه إلى الري فأبى ذلك ، وبهذا تتفق هذه الرواية مع ما قبلها ، ولا تكون متنافية معها ، وإن كنا نستبعد أن يعني مثل أبي العتاهية بتهنئة الهادي بذلك المولود في ذلك اليوم ، ولا يعنى بتهنئته بهذا الملك الذي صار اليه فيه ، فلعل حادثة ذلك المولود كانت بعد يوم ولاية الهادي الملك ، وبعد رضاه عن أبي العتاهية

وقد عاد مع الهادي بعد رضاه عنه إلى مثل ما كان عليه في عهد المهدي ، واتصلت فيه مدائحه ، واتصلت من الهادي له صلاته وجوائزه . ومما مدحه به على مذهب أبي نواس في بدء المديح بذكر الخمر ووصف محاسنها :

لهفي على الزمن القصير … بين الخَوَرْنَقِ والسَّدير
إذ نحن في غُرَفِ الجنا … ن نعوم في بحر السرور
في فتية ملكوا عِنَا … ن الدهر أمثال الصُّقُور
ما منهم إلا الجسو … ر على الهوى غير الحَصور
يتعاورون مُدامَةً … صهباءَ من حلب العصير
عذراءَ رباها شما … ع الشمس في حرِّ الهجير
لم تَدْنُ من نار ولم … يعلق بها وَضَرُ القُدور
ومُقَرْطَقٍ يمشي أما … م القوم كالرشأ الغرير
بزجاجة تستخرج السـ … ـر الدفين من الضمير
زهراء مثل الكوكب الدُّ … رِّيِّ في كف المدير
تدع الكريم وليس يد … ري ما قَبيلٌ من دَبير
ومخصراتٍ زرننا … بعد الهدو من الخدور
رياً روادفهن يلـ … ـبسن الخواتم في الخصور
غُرُّ الوجوه محجبا … ت قاصرات الطرف حور
متنعمات في النعيـ … ـم مضمخات بالعَبير
يرفلن في حلل المحا … سن والمجاسد والحرير
ما إن يرين الشمس إلا … القرط من خَلَل الستور

وإلى أمين الله مم ربنا من الدهر العثور
وإليه أتعبنا المطا يا بالرّواح وبالبكور
صُعر الخدود كأنما جُنِّحن أجنحة النسور
متسربلات بالظلام على السهولة والوعور
حتى وصلن بنا إلى ربِّ المدائن والقصور
مازال قبل فطامه فى سن مكتهل كبير

ثم انتهى عهد الهادى وحال أبى العتاهية معه مستقيمة كحاله مع المهدى ؛ فلما جاء عهد هارون الرشيد كان المظنون أن يكون حاله معه أكثر استقامة من حاله مع أبيه وأخيه ، لما سبق من ملازمته له ، وانقطاعه إليه انقطاعاً كان يحسده الهادى عليه ، ولكن حاله فى هذا العهد جاءت على خلاف ما كان يقدر لها . وهنا تضطرب الروايات عن أبى العتاهية بقدر اضطراب أمره ، وتغير حاله

روى صاحب الأغانى أنه لما مات الهادى قال الرشيد لأبى العتاهية : قل شعراً فى الغزل ، فقال : لا أقول شعراً بعد موسى أبداً ، فحبسه وأمر إبرهيم الموصلى أن يغني ، فقال : لا أغنى بعد موسى أبداً — وكان محسناً إليهما — فحبسه . فلما شخص إلى الرقة حفر لهما حفيرة واسعة وقطع بينهما بحائط ، وقال : كونا بهذا المكان لا تخرجا منه ، حتى تشعر أنت ، ويغني هذا ، فصبرا على ذلك مدة حتى قال أبو العتاهية لابراهيم : إلى كم يا هذا نلاجُّ الخلفاء ؟ هلم أقل شعراً وتغنى فيه ، فقال أبو العتاهية :

بأبى من كان فى قلبى له مرة حبٌّ قليل فسُرِق
يا بنى العباس فيكم ملك شُعَبُ الاحسان منه تفترق
إنما هارون خيرٌ كله مات كل الشر مذ يوم خلق

وغني فيه إبراهيم ، فدعا بهما الرشيد فأنشده أبو العتاهية وغناه إبراهيم ، فأعطى كل واحد منهما مائة ألف درهم ومائة ثوب

وروى مرة ثانية عن محمد بن أبى العتاهية قال : كان أبى لا يفارق الرشيد فى سفر ولا حضر إلا فى طريق الحج ، وكان يجرى عليه فى كل سنة خمسين ألف درهم ، فلما قدم الرشيد الرقة لبس أبى الصوف وتزهد ، وترك حضور المنادمة ، والقول فى الغزل وأمر الرشيد بحبسه ، فلم يزل يكتب إليه الشعر يستعطفه حتى كتب إليه :

وكلفتنى ما حلت بينى وبينه وقلت سأبنى ما تريد وما تهوى
فلو كان لى قلبان كلفت واحدا هواك وكلفت الخلىَّ لما يهوى

وروى مرة ثالثة عن محمد بن أبى العتاهية قال : لبس أبو العتاهية كساء صوف ودُرّاعة ، وآلى على نفسه ألا يقول شعراً فى الغزل ، وأمر الرشيد بحبسه والتضييق عليه فقال :

يا ابن عم النبى سمعاً وطاعه قد خلعنا الكساء والدُّرّاعه
ورجعنا إلى الصناعة لما كان سخط الامام ترك الصناعه

فلم يزل الرشيد متوانياً فى إخراجه إلى أن قال :

أما والله إن الظلم لومُ وما زال المسئ هو الظَّلوم
إلى ديان يوم الدين نمضى وعند الله تجتمع الخصوم
لأمر ما تصرفت الليالى وأمر ما توليت النجوم
تموت غداً وأنت قريرُ عين من الغفلات فى لجج تعوم
تنام ولم تنم عنك المنايا تنبه للمنية يا نَؤوم
سل الأيام عن أمم تقضت ستخبرك المعالم والرُّسوم
تروم الخلد فى دار المنايا وكم قد رام غيرك ما تروم
ألا يا أيها الملك المرجىّ ليه نواهض الدنيا تحوم
أقلنى زلةً لم أجر منها إلى لوم وما مثلى مَلوم
وخلِّصنى تُخلَّص يوم بعث إذا للناس بُرِّزَت الجحيم

وسنستوفى فيما يأتى ما بقى من هذه الروايات فى هذا الشأن الجديد الذى صار إليه مع الرشيد ، ونعمل على التوفيق بينها ، ونرد هذه الحال الجديدة فى أبى العتاهية إلى أسبابها الحقيقية ؟

عبد المتعال الصعيدى

قبر الغريبة

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

قالها على لسان أحدهم يخاطب
قبر حبيبته التي ماتت غريبة

قبرَ الغريبـة لا باكٍ ولا ناع ... سوى محبٍّ له من حزنه داع
قبر الغريبة لا ماءٌ ولا زَهَرٌ ... إلاّ دموعي وأشعاري وأسجاعي
والشعر من عنصر الرديوم جوهرُه
فليس ينفكّ ذا ومضٍ وإشـعاع
ماتت وصورتها في العين ماثلة ... أخلّتي لم تمت أم لستُ بالواعي
كأنها من شقوق القبر ناظرة ... إليّ نظرةَ مُلتاعٍ لملتاع
نزيلةَ القبر قولي: لستُ ميّتةً ... وقد تنبهت أرنو بعد تهجاع
أم ليس ما أنا راءٍ في حقيقته ... سوى خيالٍ لمن أهواه خدّاع
فأنت ميّتة أودعتُها بيدي ... قبراً وبالرغم عني كان إيداعي
حزني شديد وأوجاعي مبرّحة ... ماذا يخفف أحزاني وأوجاعي؟

* * *

دع الدفينة تحت القاع راقدة ... فالقاع ليس لما فيه بمضياع
تحفّ بالميت أشياعٌ لتدفنه ... أمّا الغريب فلا يحظى بأشياع
ما كان حادث هـذا الموت في بلدي
لغير قلبيَ في صـدري بصدّاع
في كل عمريَ قد أحببتُ واحدة ... وهذه ارتحلت في آخر الساع
ألمعت للركب أستبقيه ملتمساً ... فلم يردّ إليّ الركبَ إلماعي
ما الأرض وهي لنا أمٌّ بمشفقة ... فطالما أوقعت بي شرّ إيقاع
ولم أكن هابطاً منها لأودية ... ولم أكن لثناياها بطلّاع
ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني
بمن أحبَّ فؤادي شر افجاع
والدهر ما زال منّاعاً لنائله ... عن بعضهم ولبعضٍ غير منّاع
كانت محاسنها اللائي فُتِنتُ بها ... يملأن قلبي وأبصاري وأسماعي
كنت السعيد بماضٍ كان يجمعنا ... معاً لو أن إليـه جاز إرجاعي
في الحب تُستطاع أشياء وإن عسرت
إلاّ السلوّ فهـذا غير مسطاع
ما إن ذكرتكِ في سري وفي علني
الاّ توثّب قلبي تحت أضلاعي
أحسّ في حين طرفي لا يراكِ إلى ... جنبي بوخزٍ كحرّ النارِ لذّاع
لهفي على أعين وقّادة طفئت ... بعاصفٍ هبّ يسفي الموتَ زعزاع
قد كنتِ يوم اجتماع الغيد مفردةً ... ككوكبٍ في سماء الحسن لمّاع
سمراء فاتنة العينين خالقُها ... قد أبدع الحسنَ فيها أيّ إبداع

* * *

ماقيمة العيش في معزولة شطنت ... ما إن بها لنفوسٍ أوذيت راع
أتأذنين بدفني إن هلكتُ إلى ... جوار قبركِ في جوفٍ من القاع
فنلتقي في الثرى منا الجسومُ وإن ... كنا ولا أحدٌ منا به واع
إن انتظارك فيه لا يطول فبي ... تدنو إلى القبر أدوائي وأوجاعي
أما دنوّيَ من حتفي فيُفرحني ... كأنما أنا من نفسي له ساع
موتُ الحبيبة في دنياي زهّدني ... فلستُ إلاّ إلى حَيني بنزّاع
بكِ التحاقي أكيدٌ لا ارتياب به ... فلا يضيركِ إبطائي وإسراعي
وسوف نسبح في هذا الفضاء معاً ... وقد نطوف بشمسٍ ذات أتباع
لا يُفزعنّكِ بحرٌ للأثير طمى ... وما هنالك من موجٍ ودفّاع

(بغداد) **جميل صدقي الزهاوي**

نشيد المجد

بقلم إلياس قنصل

— من ديوان «السهام» الذي يصدر قريباً —

إلى المجد سرْ، واغنم أكاليل غاره ... بهمّةِ جبارٍ له الخلد مأربُ
وكن قوةً يعنو الجلالُ لبأسها ... ويسبقها من سؤدد الفضل موكب
وإن ناصبتْك الحربَ دنياك كلها ... وحفّكَ من ليل الحوادث غيهب
فلا تشكُ فالشكوى احتضارُ مخيّبٍ
ولن يستحقّ النور شاكٍ مخيّبُ
بل استلّ من عالي إباك مهنّدا ... تغلغل فيه من مضائك كهرب
وكافح به صرف الزمان وقل له
سأبعث فيك الرعب من حيث تهرب

وأورِ زنادَ الكدِّ واخلقْ أشعّةً … من الحزم لا ينتابُها الدهرَ مغربُ
وشقّ بها درباً إلى كل غايةٍ … سناها على عطر الثنا يتغلّبُ
وإن بتَّ مهضومَ الحقوق ولم تثرْ … فلستَ بذى نفسٍ إلى الله تُنسبُ
براها ، ورقّاها لتغدو على الثرى … خليفتَه ـ وهو العزيز المغلّبُ ـ
وما الموت إلا الضعف والجبن والونى … وما العيش إلا نيل ما أنت ترغبُ
وما النفس إلا عزة وكرامة … يظلّهما من طارف النبل مذهبُ

عاصمة الأرجنتين — إلياس قنصل

ذكرى محمد

فى عيد ميلاده

للأستاذ محمود غنيم

هو عيدُ ميلادِ ابنِ عبدِ منافِ … لا عيدُ مخترعٍ ولا كشافِ
أكبرتُ قدرَك يا ابنَ عبدِ الله عن … تأليفِ أوزانٍ ونحتِ قوافِ
ما أنت إلا عيلمٌ لم يُكتشف … يَطغَى بلجّتــه على الوصّافِ
بحرٌ خضمٌ غير أن جُمانَه … ما زال سرًّا داخلَ الأصدافِ
لولاك لانقطع الزمانُ فلم تكن … حلقاتُه موصولةَ الأطرافِ
دجت القرونُ فقام دينُك حارساً … يحمى ذمارَ حضارةِ الأسلافِ

* * *

هزَّ الوجودَ بكفّه فى مهده … طفلٌ يتيمٌ من كنانةَ عافِ
جادت به الفلواتُ أصفى طينةً … وطويةً من جوِّهنَّ الصّافى
وأشدَّ من هَضَباتِهِنَّ صلابةً … وأهبَّ من إعصارهنَّ السّافى
فإذا الأكاسرُ خاضعون لحكمه … وإذا القياصرُ مرغمو الآنافِ
فتحت مبادئُه الحصونَ أمامَه … قبلَ الصوارمِ والقنا الرعّافِ
غزت القلوبَ بسحرها فكأنها … قد لامست منهنَّ كلَّ شِغافِ
أين الذى يغزو القلوبَ من الذى … يغزو الرقابَ بحدّةِ الأسيافِ ؟
تلك المبادئُ ـ وهى شتى ـ جمعت … فى مبدأين : الحقِّ والإنصافِ

* * *

آخى ابنُ عبدِ الله بين معاشرٍ … يتناحرون تناحرَ الأخيافِ
لانت قناتُهمو لدعوته وما … لانت قناتُهمو لغمزِ ثِقافِ
ولقد يروضُ الأسدَ رائضُها ولا … يتغيّرُ الطبعُ الغليظُ الجافى

هذا هو الإعجازُ لا بحرٌ ولا … بدرٌ قد انشقّا إلى أنصافِ
آيٌ من الذكر الحكيم أتى بها … فإذا القلوب تلين بعد جَفافِ
ولو انَّ ألفَىْ دوحةٍ سجدا له … ما كان ذلك بالدليل الكافى
عجباً ! أجاء محمد بالسحر فى … آياته أم شابها بسلافِ ؟
أم كان تنويماً خضوعهمو له … ما ذلك السرُّ العويصُ الخافى ؟
أسرت قريشٌ مسلماً فى غزوة … فمضى بلا وجل إلى السيافِ
سألوه هل يرضيك أنك سالمٌ … ولك النبى فدًى من الإتلافِ
فأجاب كلا لا سلمت من الردى … ويُصابَ أنفُ محمدٍ برعافِ
أقسمتُ ما كان النبى محمدٌ … بمشعوذٍ كلا ولا عرّافِ
ليس النبى بساحرٍ يتلو الرُّقى … ويُخيف بالأشباح والأطيافِ
لكنه الإيمان من يظفرْ به … يَلْقَ المفاوزَ سهلةَ الأكنافِ
لو آمن الجبلُ ارتقى فوق السُّهى … بقوادمٍ من ريشه وخوافِ
هذا الذى جعل النبىَّ ورهطَه … إن حاربوا انتصروا على الأضعافِ
يزداد فى ساح الوغى إيمانهم … فيقابلون الموت باستخفافِ
يُستضعَفون لقلّةٍ لكنهم … بوثوقهم فى الله غيرُ ضعافِ
فإذا دُعوا للحرب هبّوا أو دُعوا … للمال عفّوا عنه أىَّ عفافِ
قم سائل الأعرابَ أيةَ دولةٍ … نهضوا بها حملاً على الأكتافِ
بزّت أثينا فى الحضارة أمةٌ … لم تأوِ غيرَ مضاربٍ وفيافِ
شُغلوا بفلسفةٍ وعلمٍ بعدما … شُغلوا بوصف منازلٍ وأثافِ
تخذوا القصورَ مساكناً وتسربلوا … بالخزّ لا الأوبار والأصوافِ
فإذا الجزيرة بعد جَدْبٍ جنةٌ … ميّاسةٌ مهتزّةُ الأعطافِ
يا رُبَّ أسطولٍ بنوْهُ كأنه … بحرٌ خضمٌ فوق آخرَ طافِ
السُّوقةُ الأجلافُ قد حكموا الورى … أنعم بحكم السوقة الأجلافِ
ما شئت من عدلٍ وتسويةٍ ومن … شورى فيا لثلاثة الأحلافِ
يا شرق يا مهدَ الشرائع رحمةً … لك ، ما لأهلك فيك كالأضيافِ؟
يا شرق أنت لكل شمسٍ مطلعٌ … ما بال أفقك حالكَ الأسدافِ
أعزِزْ علينا أن نراك تئنُّ من … تقييد أقدامٍ وشدِّ كِتافِ
بدأت من الشرق الحضارةُ سيرها … أفما لرحلتها من استئنافِ ؟

محمود غنيم

القصص

من أساطير الاغريق

هرقل (١)

مولده . نشأته . قوته الخرافية . مجازفاته

للأستاذ دريني خشبة

كان قلب الإله الأكبر شيوعية فى دولة الحب . . .

ولم يكن يقصر هواه على ربات الأولمب فحسب ، بل كان يفتتن بكل حسناء من بنات حواء ، وطالما وصل أسبابه بأسباب الغيد الأماليد من ظباء دار الفناء . . . هذه الحياة الدنيا . . .

ولقد كانت زوجه حيرا تقعد له بالمرصاد ، لما تعرف من تصابيه ، ولقلة ثقتها



تمثال هرقل فى متحف نابلى

فيه ، فلما علق الفتاة الفتانة ، ألكمين ، إحدى أميرات هيلاس ، كان يبالغ فى الحذر حتى لا تفجأه زوجه معها كما فجأته مع الحسناء يو من قبل (٢)

ونعم الحبيبان بحياة راضية ، ووضعت ألكمين طفلها العاتية الجبار هرقل ، وما كاد النبأ يذيع فى دولة الأولمب حتى ثارت ثائرة حيرا وأسقط فى يدها . . . لأنها لم تعد تستطيع أن تنتقم لكبريائها من منافستها فى قلب زوجها (زيوس) تلك المنافسة التى ارتفعت إلى مرتبة الآلهة بعد إذ وضعت غلامها ابناً لسيد أرباب الأولمب

ولكنها ، وهى هى المجبولة على الشر دائماً ، آلت إلا أن يرتد نور الحياة المتلألىء ظلاماً فى عينىْ الأم ، وذلك بالفتك بوليدها المحبوب ، فأمرت حيتين رقطاوين من أبالستها أن تسعيا إلى مهد الطفل ، وأن تندسا فيه ، حتى إذا سنحت لهما فرصة أودتا بحياته ، وعادتا بأثارة منه تشهد على إنفاذ ما أمرتا به

وسعت الحيتان حتى استقرتا فى المهاد الوثير ؛ وانتهزتا غفلة من الخدم فانقضتا على الفريسة الصغيرة ، وأوشكتا أن تظفرا بها . . .

ولكن هرقل الصغير الهادىء ، افتر عن ثغرشتيت مشرق ، وقبض بأصابعه الصغيرة الدودية على رأس كل من الحيتين ، وبضغطتين هائلتين حطم عظامهما جميعاً . وكان الخدم قد أقبلوا ، فلما شهدوا الأفعوانين صرخوا وأعولوا ، بيد أنهم بهتوا وطار الصواب من أدمغتهم حينما رأوا أن الوليد الصغير ، المنبطح على ظهره يضرب برجليه هاهنا وهاهنا ، قدقضى على الحيتين العظيمتين وألقاها ضحيتين غير مباركتين على مذبح قوته الخرافية ! !

وقدمت ألكمين فضمت إلى صدرها الحنون طفلها الهائل ! فرحةً مستبشرة ، وطبعت على جبينه الضاحك قبلة حملت أسمى معانى الأمومة

وذهلت حيرا عندما سمعت بما صنع الغلام بشيطانيتيها ، وأيقنت ألا سبيل إلى القضاء عليه ، ولكنها لم تيأس ، وأقسمت أن تنثر الشوك فى مستقبله القريب ، وتبث العراقيل فى حياته الجائية

(١) Hercules أو Heracles ويسميه بعضهم Alcides وعربه العرب هرقل

(٢) العدد ٩٠ من الرسالة

وشب هرقل ...

ونشأه مؤدبه ، شيرون ، زعيم السنتور[1] ، تنشئة حربية حافلة ، ولقنه كل ما تحتاج إليه حياة الفرسان من تقشف واخشيشان ؛ فمهر هرقل فى زمن قصير فى استعمال الأسلحة بأنواعها ، ونبغ فى جميع صنوف الرياضة وألعاب الفروسية والقوى

وكان شيرون نفسه يعجب بهذا الجسم الحديدى ، يمسكه العضل البارز ، ويزينه الكيان المفتول ... وكان إذا أراد تدريبه على المصارعة وألعاب القوة ، آثر أن يشركه فى نزال مع الثيران والعجول ، والضخم ذى الأيد من بهيمة الأرض . وكان هرقل لا يخشى شيئاً من خصومه العجماوات ، بل كان يقبل على مصارعتها بثغر بسام وقلب طروب ، فلا يدعها حتى يلقيها على الأرض معفرة بالتراب ! وخشيته الحيوانات جميعاً ، فكانت تجفل من طريقه كلما رأته مقبلاً نحوها ، لطول ما جربت من بطشه وشديد بلائه !

وكان الفتى كلما ازداد قوة ، وذاب الحديد فى عضلاته ، ازدادت حيرا تغيظاً ، وهاجت فى فؤادها الأحقاد !

ولم تعد تطيق صبراً على هذا الخصم العنيد ، ومادت بها الأرض ، وأصبحت كأن يعاسيب العداوة تطن فى رأسها تغريها بهرقل ، ومن يلوذ بهرقل ؛ فانطلقت إلى زوجها ولم تزل به حتى أصدر إرادة أولمبية تقضى أن يصبح هرقل خادماً لابن عمه ، النذل الخسيس : يوريذوس أمير أرجوس ، وأن يظل فى خدمته بضع سنين ...

وانتهى هرقل من تلمذته على شيرون ...

وانطلق يكابد الحياة كفن قاس ملىء بالرغائب ، مفعم بالمجازفات . فبينما كان يعبر طريقاً معروشاً بفروع السنديان ، بين غابتين عظيمتين ، إذا غانيتان جميلتان تعترضانه وتأخذان عليه سبيله ... فأشاح عنهما ، يحسبهما من المسكينات ملفوظات البغاء ، أو من أولئك اللائى يتخذن الفسوق حرفة قذرة إلى عيش وضيع . ولكن الفتاتين تشبثتا به ، وأبتا إلا أن يقف معهما هنيهة ، يتخير منهما واحدة تكون رائدته فى هذه الحياة ، تهديه وترشده وتأخذ بيده فى سبلها المتشعبة

وكانت إحدى الفتاتين ، (كاكيا) ، شيطان الأثم ، وإبليس الفجور فى هذه الأرض . فتقدمت إليه متبرجة متهتكة ، تغمز بهذا الطرف ، وتبسم بذاك الثغر ، وتهز ما سكن من الجيد ، وتمط ما اشرأب من العنق ، وتحسر عن الساقين ، وتكشف عن الذراعين ، ثم هى تقرقع بضحكات مخنثة تثير الاشتهاء فى نفس الشاب ، وتستولى بها على مشاعره : « أنا ، حبيبتك كاكيا ، أجمل غادات هيلاس ومفتحة الورود فى خدود العذارى ، أضع قلبى وجسمى بين قدميك يا هرقلى العزيز ، مطية إلى الفردوس التى تجد فيها ما شئت من نعيم وما تمنيت من لذة . . . فاتبعني أجعل الدنيا كلها من حولك سعادة ، وأصير طريقك أنى ذهبت فى الحياة منضورة بالورد ، زاهرة بالرياحين . . . هلم إلى نحى حياة كالحلم ، بعيدين من عناء العالم ، نائين عن شقاء الدنيا ، لا نفتح عينينا إلا على متعة ، ولا نرهف سمعينا إلا لموسيقى ، ولا نغلق قلبينا إلا على نعيم . . .

مالك ولشد اربداد وجه الحياة يا حبيبى هرقل ؟ إن الدنيا فرصة سانحة فانتهزها ، وإن العمر قصير فلا تلق به بخوراً فى نار البأساء ، وإن الأيام لتخب بنا دون أن نشعر بها ، فلم نحاول أن نلبسها بالجد فيها هذا اللبوس الأسود الحزين القاتم ؟ ولم لا نرسلها فى وشى وأفواف ؟ لم لا نستمع دائماً لما توحيه إلينا قلوبنا ونفوسنا ما دامت الدنيا مخلوقة لها ؟

لم تطرق هكذا يا حبيبى ؟ أمتعب أنت ؟ هات رأسك إذن ، ودعه ملقى على صدرى الجميل الخصب . . . »

ولكن الفتى نفر نفرة بادية ، وأرسل نظرة فاحصة إلى (أريتيه) ، الفتاة الأخرى ، التى كانت تقف عن كثب ، مصغية إلى حديث كاكيا ، مشفقة على الشاب المسكين

أما أريتيه هذه فربة الفضيلة ، ونفحة السماء ، وهادية البشر ومنقذتهم من شرور كاكيا . . .

وسألها هرقل : « وأنت أيتها الفتاة ، بم تشيرين ؟ »

وقالت أريتيه ، وهى تكفكف عبرة غالية : « أنا ؟ لا أشير عليك بشىء أيها الصديق إلا بالحذر من هذه الغادة . إنها توشك أن تضلك وترديك ! » .

(١) السنتور جبل خرافى نصفه نصف رجل والنصف الأسفل نصف حصان

فغيظت كاكيا وأخذها الحنق ، وأجابت فى غلظة وخاشنة : « أضله وأرديه ؟ ها ها . . . وأنتِ أتسلكين به سبيل الفضيلة الذى زُرعت أرضـه قتاداً ، وبرزت فيها أنياب الذئاب ؟ اسمع يا هرقل ، اصغ إلى يا حبيبى ، دعك من هذه الفتاة المحتشمة . . إليك عنها . . . إنها تغطش حياتك لو تبعتها . . . »

وتبتسم أريتيه ابتسامة هادئة وتقول : « إن الآلهة يا هرقل قد زودتك بهذه القوة الكامنة فى بنيانك لغرض أسمى من جميع الأغراض الحيوانية ؛ وقد كان أجدى للخير العام أن تخلق ثوراً ذا خوار من أن تودع كل هذا الحديد فى عضلاتك ، لو لم تكن قد أعدتك لفعال جسام لن يؤديها غيرك . أجل ! إن طريقى لا ينمو بها إلا الشوك ، وإنها تدمى الأقدام وتجهد السائرين ، ولن ترى فيها زهرة ولا ريحانة ، بل لن تسمع فيها عصفوراً يغنى ولا بلبلا يغرد ، وبالعكس ، قد تقتتل فيها مع السباع والضوارى والثعابين ، ولكنك فى آخر كل نصر ، وعقبى كل ظفر ، ترى جنة من الرضى تحفك بالزهر ، وترقص بين يديك بالغوانى والقيان . أما هذه . . . أما ما تغريك به هذه الأنثى الهلوك ، ففيه حتفك ، فحذار . وليس أحب إليك ، كرجل ، كان له الشرف أن يكون ابن إلـه ، من أن تثبت للآلهة أنك جدير بما انتدبتك له »

وسكتت أريتيه ، ولكن كاكيا لبثت تدل وتتيه وتتبرج ، تحاول الفوز بهذا القنص العزيز . . . غير أن نخوة الرجولة ثارت فى قلب هرقل ، فانتهر الغانية الغاوية وأغلظ لها ، ثم تقدم إلى أريتيه فتناول يدها الصغيرة الحلوة ، وطبع عليها قبلة تفيض وقاراً واحتراماً ، ثم قال لها بصوت متهدج خافت : « هلمى بنا يا فتاة فلن أخشى فى سبيلك بأساً ولا رهقا »

وانطلقا . . . وغابا فى ظلام الغابة . . .

ولم يبرح هرقل مُعيناً للضعفاء ، مغيثاً للملهوفين ؛ إذا رأى مظلوماً انتصف له من ظالمه ، وإذا لقى جائعاً نزل له عن زاده ؛ ولم يبرح ينصر الفضيلة أنى سار ، ولم تبرح الفضيلة تمشى فى أثره أيان ولى ، حتى ضاقت الدنيا بحيرا ، ولم تعد تحتمل هذا الفار من المجد بكال هامة خصمها العظيم ، ولا سيما بعد أن اتصل بالملك كريون ، ملك طيبة ، وزواجه من ابنته الجميلة ميجارا

لقد أحب هرقل زوجته حباً جماً . وأحبته هى كذلك وأخلصت له ، وكانا يذهبان إلى الغابة القريبة يتناجيان نجوى الحب ، ويرشفان كؤوس الهوى ، ويعودان مع الأصيل فيسامران الملك الشيخ ، ويدبران معه أمور المملكة

ثم مكرت حيرا مكرها ! . . .

لقد صممت على أن تسلب هرقل رشـده ، وتتركه يهيم فى الأرض ينطح برأسه الصخر كما يفعل الضلال المجانين . فبينما كان غارقاً فى أحلام السعادة إلى جانب زوجته ، آمنين مطمئنين ، إذا حيرا الآثمة تندس فى ظلام المخدع ، وتنفث سحرها الفظيع فى أذنى هرقل ، وتمضى لشأنها ، فتختبىء فى الحديقة خلف دوحة كبيرة من دوح الشاهبلوط . . . وتنتظر ثمة ريثما يصحو الزوج المسكين ، فتشهد المأساة التى تتفزّع من هولها الأرض وتميد الجبال ! . . .

وأشرقت الشمس !

واستيقظ هرقل ؛ ونهضت ميجارا ، ولـكن ناراً كانت تقـدح الشرر فى عينى البطل ! وزبداً حاراً كان ينقذف من فمه المخوف ! وأصواتاً كأصوات الشياطين كانت تدوّى فى رأسـه الضخم . . .

والدم ! . . .

لقـد كان ينبثق من كل جارحة فى جسمه الأرجوانى ، فيصبغ اللحُف والأرائك ، ويسيل على أديم الغرفة المغطى بالدمقس !

وذُعرت ميجارا ، وصرخت صرخات راجفة تدعو أباها . .

ولـكن هرقل المسحور ينتفض انتفاضة تزلزل أركان القصر ، وينقض على زوجته التعسة كأنه ضبع : « تعالى يا خائنة ! أين كنت طيلة الليلة الفائتة ؟ آه ! أجل ! كنت تتمرغين بين ذراعى عشيقك الجبان ! الويل لكما ! شرف هرقل تلغ فيه الكلاب ! »

وبضغطة قوية من يديه الصارمتين ، على عنق الفتاة المنكودة يتركها جثـة هامدة ، قرباناً للموت فى عنفوان الصبى ، وضحية للردى فى ريعان الشباب . . .

وانطلق يصرخ فى ردهات القصر ، وهرول يزمجر فى حنيات الحديقة ، ثم أطلق ساقيه للريح . . .

وفى قنة جبـل تزمزم الأعاصير فى جنباته ، جلس هرقل المسكين ليثوب إليه رشده ، وليذكر أنه قتل زوجته المحبوبة فى

نوبة جنونية ، فينشج ويبكي ! . .

وتكون غمامة فوق رأسه تظله من وهج الشمس ، فتنشق عن إلـه كريم ، هو هرمز رسول السماء ، حمل إلى هرقل تلك الارادة الأولمبية القاسية ، التي أصـدرها زيوس ، متأثراً بالحاح زوجته الآثمة حيرا ، والتي تقضي أن يظل هرقل في خدمة ابن عمه يوريذوس اثني عشر شهرا يصدع خلالها بما يؤمر !

— « لقد كان عليك أن تظل في خدمته بضع سنين . . . ولـكننا ألحفنا على رب الأرباب فقصر المـدة ، واختزلها إلى ما ترى ! »

— « يختزلها أولا يختزلها ، لقـد أصبحت الحياة سجناً بدون ميجارا ! »

— « عليك بالصبر ياصديق ، فقد تفيدك طاعة الآلهة ... »

— « الآلهة التي لا تحسن عملاً غير هذا العبث ! . . . »

— « صه صه . . . هلم إلى يوريذوس ، وستكون حراً بعد سنة واحدة . . . »

***

وجن جنون هرقل لهـذا القضاء الأولمبي الأعمى ، وفر من هرمز في مسارب المياه ، ولجأ إلى الوحوش يلتمس لديها الصبر الجميل والقلب الرحيم ؛ ولـكنه عبثاً حاول الفرار مما كتبته السماء عليه ، وهنا ، بدت له صديقته ربة الفضيلة أريتيه ، فنصحته ، ولم تزل به حتى أقنعته بخدمة يوريذوس ، فذهب إليـه كسير القلب مهيض الجناح ، كأن جبلاً من الهم والسخط مستقر على رأسه

وقال له يوريذوس : « وأخيراً وصلت إلى آخر الدرب يا هرقل ! . . . إن أمامك أموراً فأعد لها عدتك ، فما أحسب دموعك على ميجارا بمجدية عليك شيئاً ... ... »

وحدجه هرقل بنظرة يشتعل فيها الغضب وقال له : « أجل ! لقد وصلت آخر الدرب ... ولـكن ليس لك شأن بدموع أذرفها من أجل ميجارا ... ألا فاذكر حاجتك التي أرسلتني الآلهة لأقضيها لك ، وأقصر ! »

وضحك يوريذوس حتى كاد الرعد يخرج من بين شدقيه ، وقال : « حاجتي ! إن لي لحاجات ما أحسبك تستطيع قضاء واحدة منها . وكيف تصبر مثلاً على سَبُع نيميا الذي يقطع الطريق إلى غاباتها ذات الـكنوز والأذخار ؟ »

وقال هرقل : « سبُع نيميا أو ألف سبع كسبع نيميا ، عليك أن تكلفني ولو بهدم السماء أفعلُ ماتكلفني به ... والآن ، أإذا جئتك برأس هذا السبع أكون طليقاً ؟ »

— « تـكون طليقاً ؟ إن أمامك اثنتيْ عشرة مسألة ، رأس سبع نيميا أولها وأيسرها يا هرقل ، فهلم إذن ، وسنرى ... »

(لها بقية) دريني خشبة

من الأدب الإيطالي

الليالي العشر

IL DECAMERON

ترجمة الأديب احمد الطاهر

٣

قصة صداقة

جيزيبوس و تيتوس

قالت فيلو مينا : « لقد سمعتم من بامفيلو قصة رائعة تظهركم على قوة الحب وأثره في النفوس ؛ وأنا ذاكرة لكم قصة أخرى تكشف عن قوة الصداقة وفعلها في الناس : وقعت حوادثها في عهد اوكتافيوس قيصر إذ كان حاكما لروما

فصل من روما إلى اثينا شاب يدعى تيتوس ليدرس الفلسفة ، وهناك عرف شاباً اثينياً شريفاً اسمه جيزيبوس ، واتصلت بين الفتيين أسباب الصداقة والمحبة . ومضت سنون ثلاث تعمل على توثيق هذه الأسباب ، والفتيان لا يفترقان في مسكن أو مأكل أو درس

وقدر لجيز يبوس الاثيني أن أغرم بفتاة جميلة من بنات جنسه تدعى « سوفرونيا » ، وحببت اليه الفتاة ، وحبب الفتى اليها ، واتفق المحبان على الزواج

ورأى جيز يبوس قبل الزواج ببضعة أيام أن يصحب صديقه الروماني تيتوس الى بيت الفتاة لزيارتها ، وهو يعهد فيه نبلاً في الطبع ، وشرفاً في النفس لا سبيل إلى الشك فيهما ، وما إن رأى تيتوس الفتاة حتى أقصده حبها بسهم مصيب ، واشتدت به تباريح الهوى ، فما يغمض له جفن ، ولا يهنأ له طعام . وما زال الحب يلح عليه حتى أضناه ، ويسرف في النيل منه حتى أضواه ، وأصبح الفتى سقيما عليلاً لا يرجى شفاؤه ، ولا يرحم داؤه ، وساءت به الحال ، حتى أشفى على الزوال

وعز على صاحبه ما أصابه ، وذهبت به الظنون كل مذهب في سبب علته ، وأخذ يسائله عن مصدر أحزانه ، ومبعث أشجانه ، والفتى لا يستطيع جواباً بغير الدمع ينهمر من مآقيه ، والصمت لا يبرح على فيه ؛ ولما أسرف عليه صاحبه في السؤال وألح ، قال : « يا صديقي ، لقد أحسست بخستي ودناءتي ؛ فما أحسبني بعد اليوم خليقاً بصداقتك ، وما أطمع منك إلا في عفوك وصفحك ، أما عند الله فسيصيبني بما أجرمت صغار وعذاب شديد ، وما يوم القصاص ببعيد . ولا أكتمك أن مبعث علتي ، ومصدر شقائي هو حبي لفتاتك سوفرونيا . أعترف لك بهذا الاثم الشنيع الذي قارفت رحضاً لسبة الخيانة ، ومعرة الانكار ، واستعدادا لقضاء العادل الجبار »

وجم صاحبه لحظة ، واستولت عليه حيرة ، وتزاحمت عليه خواطر شتى : هذا وفاؤه لتيتوس يكبره ويقدسه ، ويذود عنه بعقله وحكمته ، وهذا حبه لسفرونيا يملك عواطفه ويتحكم في شعوره ويملأ قلبه . فماذا يصنع ؟ وإلى أي العاملين يخضع ؟ ثم ليست هي الصداقة وحدها تتراءى له فيقع في حيرة وتردد ، بل هو الصديق نفسه قد أشفى على الهلاك والتلف ، وتصرمت بينه وبين الحياة أسبابها . أطال جيز يبوس الصمت ، وأغرق في التفكير ، ثم استقر ، ورضى ، وطابت نفسه أن ينزل عن سعادته في الحب لينجو صديقه من الموت ، وتنجو صداقتهما من أن يعتورها كلل أو فتور

ومضت بضعة أيام ، وأقبلت سوفرونيا إلى منزل العريس ، وقد أعد العدة لليلة الزفاف . وما وافت ساعته حتى انسل إلى مقصورتها ، وأطفأ شموعها وقفل راجعاً إلى صديقه تيتوس في حيرة لا قبل له بها ، وتزاحم عليه الخجل ، والحب ، والرغبة ، والأباء ، والوفاء : تتنازع هذه النفس المعذبة المحطمة وتتركها شمماً لا يرجى له اجتماع ، وتضطرب في هذا القلب المتداعي حتى ليكاد ينفجر الصدر ، وتنقض الأضلاع . ولم يسمه إلا أن يرفض ما عرض عليه جيز يبوس ، وألح هذا الصديق الوفي في قبول ما عرض ، حتى نزل تيتوس على ارادة صديقه وقبل رجاءه ، واسترق الخطى إلى مقصورة العروس ، فلما دنا منها تحت غلس الليل قال لها : « أتطيبين نفساً بزواجي ؟ » فحسبته الفتاة زوجها الموعود جيز يبوس ، وأجابت « بنعم » . فتناول خاتماً ثميناً

ووضعه فى أصبعها وقال لها شاكراً : « وسأكون زوجك »

ولما تنفس الصبح وافتضح التدبير أدركت سوفرونيا أن فى الأمر خدعة ودلساً . فتسللت من بيت عرسها وانصرفت إلى أمها وأبيها ، تشكو اليهما خدعة وقعت فيها ، وذاع الخبر فى أثينا ، وكان حديثاً تلوكه ألسنة الناس ساخطة على فعلة جيزيبوس وخديعته لفتاة انحدرت من أطهر الأصلاب وأعرق الأنساب ، ولكن لا مفر مما وقع ، ولا تبديل لحكم القضاء . ولم يجد والدا الفتاة حيلة فى هذه الكارثة المخزية إلا أن يسترا الفضيحة ويكتما العار . فطلبا إلى تيتوس أن يرحل بالفتاة إلى روما حيث لا يعلم الناس من أمرها شيئاً

وما كاد الفتى يفصل عن اثينا بزوجته حتى تحركت فى نفوس الملأ سورة الغضب والانتقام من جيزيبوس جزاءً بما فعل بهذه الأسرة الكريمة ، واشتدوا على الرجل ونكلوا به تنكيلاً ، وجردوه من كل ما يملك ، وشردوه من اثينا تشريداً أبدياً ، فخرج منها مذموماً مدحوراً

وركب نعليه إلى روما ، ومشى إليها مكباً على وجهه ، كاسف البال ، عليه من الثياب أسمال ، لا رفيق له إلا أحزانه وأشجانه ، تبطئ خطاه حيناً ، وتسرع أحياناً . ولقى فى سفره هذا عناءً ونصباً . وأشرف على المدينة فتلمس دار صديقه الذى لقى ما لقى فى سبيل الوفاء له والابقاء على صداقته فهداه السابلة إلى طريق اتخذ سمته فيه إلى قصر شامخ عليه مظاهر النعيم واليسار ، تجرى عليه من السعادة أنهار ، وإذا هو قصر صاحبه تيتوس . وتنسم أخباره فاذا هو فى نعمة سابغة ، وسطوة بالغة ، وإذا هو فى المدينة من ذوى السلطان والحول ، والقوة والطول ، لا يدفع له أمر ، ولا يرد له قول أن كان فى المقربين من أمير البلاد اكتافيوس قيصر من الخاصة الخلصاء . واختلس الفتى من أعين الحراس موقفاً إلى جوار الباب خفياً ، وأسند ظهره إلى الحائط وأطرق يفكر ملياً

وارحمتاه لهذا البائس المنكود ! يسبح فى بحار من الأحزان والآلام لو سلطت على هذا القصر لدكته على من فيه دكاً . ترى ما الذى يختلج فى هذا الصدر من لواعج الأسى؟ وما الذى يضطرب فى هذه النفس من شتى المشاعر؟ . هذا صديقه الذى نزل عن سعادته فى الدنيا لينعم بها دونه ولقى فى سبيل الوفاء له شر ما يلقى الناس من عنت الدهر ، وتجرد له من حطام الدنيا وما ملكت يداه ، وأفزع من وطنه شريداً طريداً لينعم بخفض العيش ويستقر فى مهاد النعمة . أإذا خرج وراءه ، يعطف عليه ويرق لمرآه ؟ أيذكر له سابق فضله ويسبغ عليه من فيئه ؟ وكيف السبيل إليه ، ودونه من الحراس والحجاب والأبواب ما يصد الناس عن الوصول إليه ولو كانوا من ذوى المكانة . فكيف به وهو على ما نعلم من الذلة والمهانة ؟

وبدت فى القصر حركة تدل على أن صاحب القصر قد آذن بالخروج ، فتحرك الفتى من موضعه ، واحتبست أنفاسه ، وخرجت من صدره نفثات ، ومن عينه عبرات ، ومر صاحب القصر به ولم يعن بشأنه ولم يلتفت إليه كأن لم يكن شيئاً موجوداً

وانصرف الفتى يتعثر فى أذيال الخيبة ويهيم فى الطرقات ، لا يقصد غاية ، ولا ينتهى إلى نهاية . كأنما وكل بسبل المدينة يذرعها ذرعاً . وأدركه الليل . وبسط عليه جناحين من سواد ، فأوى إلى كهف يتخذه اللصوص مثابة فألقى عنده عصا الترحال وأسند رأسه إلى الأرض يلتمس فيها راحة البدن ؛ وقد أيأسته راحة النفس ، وحاول أن يغمض عينيه ، ولم يجد النوم سبيلاً إليهما بين هذه العبرات الحارة المنهمرة انهماراً . ودخل إلى الكهف لصان يحملان أسلاباً ، ونزغ الشيطان بينهما فاختلفا فى قسمة الغنيمة فهمّ أحدهما وضرب الآخر فأرداه قتيلاً

تنفس الصبح وطاف بالكهف بعض العسس فألفوا القتيل مضرجاً بدمائه وفتى القصة راقداً إلى جواره . فاقتادوه إلى دار الشرطة والقضاء ليتبينوا منه الأمر

وهنا دفع اليأس فتانا لأن يلتمس مخرجاً من هذه الكوارث فألقى بنفسه إلى التهلكة وترامى فى أحضان الموت وقال : « أنا القاتل ! » وفى نفسه بارقة من الأمل ، ولكنه أمل فى الموت وفى أن يخرج من عناء الدنيا إلى راحة الأخرى

قال القاضى « ولقد حكمنا عليك بالاعدام صلباً » وكذلك كان يجزى القاتلون

وساقت الأقدار تيتوس ذا الحول والطول إلى ساحة القضاء ليزجى دفاعاً عن أحد الأبرياء ، فخانت منه نظرة إلى فتانا جيزيبوس

فأنكره ، ثم تأمله فتبينه وعرفه ، فساءته حاله وأشفق عليه وعقد العزم على أن يخرجه من بأسائه إلى نعيم ، وأن يبعث فى حواشى هذه النفس الحالكة شعاعاً من الأمل لا يخبو . ولم يكن من سبيل إلى هذه الغاية إلا أن يدحض اعتراف جيزيبوس باعتراف آخر ، فمثل أمام القاضى وقال : « مهلا أيها القاضى ! أنا القاتل ! وهذا الرجل برىء مما يدين به نفسه ! »

وقع القاضى فى حيرة يصعب الخلاص منها ، وأدرك تيتوس أن صديقه يسعى لاخراجه من فم الأسد الذى أقحم نفسه بين فكيه . وهو لا يريد الفرار من بؤس الحياة إلى الحياة ، وإنما وجد فى الموت منجاة من عذاب الحياة . وفصل جيزيبوس من مجلسه إلى القاضى ودفع صاحبه وقال : « لا ! بل أنا القاتل ياسيدى ولا توقع قصاصك إلا علىّ ! »

قال القاضى فى نفسه : « أكان الصلب شرفاً يتزاحم عليه هذان المأفونان ؟ » وفيما هما يتدافعان إلى الردى برز من بين النظارة لص هصور وقال : « لقد رأيت هذين الرجلين يدفع أحدهما الآخر بما وسعه من الجهد عن حياض الردى ، فما وجدت خيراً من أن أعترف لك ياسيدى القاضى بكل شىء فأريحك وأنقذ الرجلين وأريح نفسى . ما شأن تيتوس — وهو على ما علمتم من الشرف — وما سدة اللصوص يأوى اليها أو يتخذ اليها السبيل ؟ وهذا الرجل ذو الثوب الخلق كان حقاً فى احدى زوايا الكهف نائماً ، ودخلنا الكهف أنا وزميل لى ونزغ الشيطان بيننا فاختلفنا فى قسمة الأسلاب — واللصوص كما تعلمون تدب بينهم الشحناء لخير المدالة والقضاء ، ففضضت النزاع بأن سللت مديتى وأزهقت روح زميلى كما أسل اليوم لسانى لأنقذ روحى هذين السيدين »

هذا خصم ثالث يطالب بنصيبه فى الموت كاملا ، فما أشد حيرة القاضى ووجوم النظارة !

ورجع القاضى الى ملاذ القضاة ، وهو اوكتافيوس قيصر ، أمير البلاد ، ودفع اليه بثلاثة الرجال ، فألقى السمع الى حديثهم وعرف ما كان من أمر تيتوس وجيزيبوس منذ جمعت بينهما الصداقة ، وفرق بينهما الحب ، وجمعهما الأقدار ، إلى أن مثلا فى مجلسه فقضى بحكمه العادل ببراءة الصديقين ، والعفو عن اللص المعترف اكراماً لهذه الصداقة واكبارا لنفسه الأبية

وخلا الصديقان أحدهما إلى الآخر فى قصر تيتوس ، ولما اطمأن بهما المجلس نزل تيتوس عن نصف ثروته إلى صديقه وزوجه من أخته وكانت فتاة بارعة الحسن نبيلة

وأقاموا جميعاً فى القصر ، وزادهم الله بسطة فى الرزق ، وسعة فى العيش ؟

« عن الانجليزية » يوزباشى أحمد الطاهر

البريد الأدبي

مكتبة لوى بارتو

منذ أيام قلائل بيعت فى باريس مكتبة لوى بارتو المؤرخ والسياسى الفرنسى الكبير الذى قتل فى أكتوبر الماضى إلى جانب الملك اسكندر السربى ؛ وكان بارتو من أعظم هواة الكتب والتحف الأدبية ، وقد قضى حياته وأنفق ثروته كلها فى اقتناء نفائس التحف والكتب الأدبية ، وجمع منها مكتبة عظيمة كانت من أشهر مكاتب فرنسا الخاصة . وقد أوصى بارتو بمكتبته النفيسة قبل وفاته إلى الأكاديمية الفرنسية التى كان عضواً فيها ؛ وقررت الأكاديمية أن تعرضها للبيع بالمزاد ؛ ووقع هذا البيع أخيراً ؛ وكانت أيام البيع من أيام باريس المشهودة لما لهذه المكتبة العظيمة من شهرة ذائعة . وكتبت جميع الصحف الفرنسية عن مكتبة بارتو وعن تبدد هذا التراث البديع الذى أنفق فيه المفكر الكبير حياة بأسرها . ومما احتوته هذه المكتبة الفريدة مجموعات نفيسة من الطبعات الأولى لأشهر الكتب الفرنسية منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر ، ومنها مؤلفات لمونتانى ورونسار وبوالو وبوسويه وفنيلون وموليير وغيرهم ؛ ثم مجموعات نفيسة لبلزاك وبودلير ، وجوتييه وموسيه وسانت بيف وهوجو وغيرهم . ومن التحف رسائل بخط نابليون بونابارت وتوقيعه ، وكتب عديدة عليها شعار الامبراطور ، ونسخة خطية من معاهدة الصلح (فرساى) موقعاً عليها من لويد جورج وفوش وكليمنصو .

وقد حققت مكتبة بارتو من البيع مئات الألوف من الفرنكات ؛ ومما يذكر أن نسخة من ديوان بودلير المشهور « فلير دى مال » بيعت بمبلغ سبعة وخمسين ألف فرنك ، بينما بيعت مخطوطات معاهدة فرساى بواحد وأربعين ألف فرنك ، وهكذا بددت مكتبة لوى بارتو بين أيدى الهواة ؛ وهذا مصير معظم المجموعات والذخائر الخاصة

السياحة على طريقة العصور الوسطى

تطورت وسائل الدرس والسياحة فى عصرنا ، واستطاع العلم أن يسخر البحر والهواء ، وغدا الطواف حول العالم أيسر الأمور . ولكن مازال يوجد من الرحل والباحثين فى عصرنا من يفضل الطواف على طريقة السائح الهروى وابن بطوطة ومار كوبولو وغيرهم من أكابر الرحلة فى العصور الوسطى . فمنذ عامين فكر ضابطان بحريان فرنسيان هما الكبتن بيشوف وجوزيف ثاتبويه فى جوب بحار العالم فى قارب شراعى ؛ ونفذا مشروعهما الجرىء ، وقطعا إلى اليوم زهاء ستة آلاف ميل ، وغرقا أكثر من مرة ، وسلبهما اللصوص أكثر من مرة ، واعتقلا كجاسوسين وعاشا شهوراً طويلة على الحشائش والأسماك ، مما يذكرنا برحلات السندباد العجيبة

خرج هذان السائحان من ثغر تونجهاى فى الهند الصينية فى مركب شراعى ، وسارا شرقاً فى عرض المحيط الهادئ إلى جزائر كارولين ، وهناك كسر قاربهما ، فعادا إلى الصين ، وجهزا سفينة شراعية أخرى ؛ وسارا فيها إلى جزيرة فرموزا اليابانية ، وهنالك سطا عليهما اللصوص فجرداهما من كل شىء حتى أوراقهما الشخصية ، ثم قبضت عليهما سلطات الجزيرة بتهمة التجسس ، وأبعدا من فورموزا . ولكنهما لم يعدلا عن مشروعهما ؛ فجهزا مركباً ثالثاً ، وخرجا من ثغر أموى ، واخترقا بحر تيمور قاصدين إلى جنوب استراليا ؛ وفى أثناء الطريق هاجمتهما كلاب البحر ، ومزقت العواصف شراع المركب ، فلبثا عشرة أيام تحت رحمة الموج لا يعرفان لهما مستقراً ، حتى لمحا فى عرض البحر سفينة نرويجية ، فأغاثتهما ، وأمدتهما بالمؤن ، وأصلحا الشراع ؛ واستمرا فى رحلتهما حتى وصلا إلى ثغر بروم فى استراليا الغربية ، ثم عبرا بوغاز توريس حتى بور مورسبى ، ووصلا إلى شواطئ جزائر بابوازى بعد رحلة مروعة ، وهنالك انكسر قاربهما مرة أخرى ؛ فعاشا فى تلك الأرض زهاء سبعة أشهر يأكلان قواقع البحر ويشربان ألبان جوز الهند ، ويدرسان أحوال هذه الجزر وأحوال أهلها المتوحشين ، ولما استطاعا أخيراً أن يصلحا قاربهما ، ارتدا إلى البحر كرة أخرى ؛ وجاسا خلال جزائر « أوشنيا » القاصية

التي اكتشفها الكبتن كوك ثم لقي حتفه فيها ، وفي عزمهما بعد طواف المحيط الهادي أن يرتدا إلى الجنوب ، ثم يعبرا المحيط غرباً إلى الاطلانطيق ، حيث يزمعان اختراقه إلى فرنسا . ولكن هل يستطيعان تنفيذ هذا المشروع الجريء ؟

ذكرى الشاعر تاسوني

احتفل أخيراً في مودينا بايطاليا بذكرى الشاعر الايطالي الكبير الساندرو تاسوني ، لمناسبة مرور ثلثمائة عام على وفاته ؛ وكان تاسوني من أكابر شعراء القرن السادس عشر ، ومن ذلك الجيل الذي تأثرت عبقريته بتراث عصر الأحياء ؛ وكان مولده بمدينة مودينا سنة ١٥٦٥ ، يوم ان كانت ماتزال امارة زاهرة ؛ وتلقى تاسوني تربية حسنة ، وظهر في الشعر والحياة العامة شاباً ؛ واشتغل منذ سنة ١٥٩٩ سكرتيراً للكردينال اسكانيو كولونا من أقطاب الفاتيكان ، وقام وهو في هذا المنصب ، بعدة مهام سياسية خطيرة ؛ واستمر في منصبه حتى سنة ١٦٠٨ . ثم غادر رومة والتحق بخدمة دوق ساڤوا ، واشتغل هنالك أيضاً بالمهام السياسية ؛ ولكنه مع ذلك كان يطلق العنان لميوله الأدبية والشعرية ؛ ولم ينفك أثناء ذلك عن الكتابة والنظم ؛ ومن أشهر آثاره La Secchia Rapito أو « اغتصاب الدلو » وهي قصة شعرية من نوع الخيال المعروف ؛ ومجموعة مختلفة بعنوان Psnsieri Diversi « أفكار منوعة » وكتاب عن بترارك وشعره عنوانه « تأملات عن بترارك » Considerationi sopra it Petrarcha وله قطع ومجموعات أخرى شعرية ونثرية

تكريم مستشرق روسي

احتفل المستشرقون الروسيون في ١٤ يونيو بتكريم المستشرق الروسي الأستاذ أغناطيوس كرنشكوفسكي لمرور ثلاثين عاماً قضاها في خدمة اللغة العربية ، ألف في أثنائها ما ينيف على ثلثمائة رسالة في تاريخها وآدابها القديمة والحديثة ، وهو يشتغل الآن بنشر كتاب ابن المعتز مع شرحه والتعليق عليه باللغة الانكليزية ، وقد اشترك في هذا التكريم المجمع العلمي العربي بدمشق بخطاب أرسله رئيسه ليتلى فيه

عيد ألفي لابن سينا

في بريد سورية أن الجامعة السورية تفكر في إقامة عيد ألفي لذكرى الطبيب العربي الكبير الرئيس ابن سينا

وقد فوضت إلى لجنة من أساتذة المعهد دراسة هذه الفكرة واعداد الوسائل اللازمة لجعل هذه الذكرى متناسبة مع جلال الخدمة العظيمة التي أداها الرئيس للطب

اللغة العربية في جامعة لندن

روت جريدة البالستين بوست بالقدس أنه لمناسبة اليوبيل الفضي لجلالة ملك الانكليز فكر السر دنسن روس أن يؤسس لهذه الذكرى مقعداً جديداً مجانياً لتعليم اللغة العربية في جامعة لندن

وقد اختار السر دنسن روس اللغة العربية لهذه الذكرى لأن الامبراطورية البريطانية تضم تحت « جناحيها » أكبر عدد من الشعوب العربية ، والمتكلمين باللغة العربية ولا تفوقها في ذلك دولة أوربية أخرى

الكتب

أنظار في كتاب «حياة محمد»

بقلم الأستاذ محمد علي النجار

قرأت هذا الكتاب الجليل الغني عن التقريظ، فعن لى حين قراءته أنظار راجعة إلى ألفاظه وأخرى إلى معانيه، فأحببت أن أدونها بادئاً بالأولى في هذه المجالة، وإني أعلم أن معظمها آت من القائمين بالطبع؛ غير أن حرصي على سلامة ما في الكتاب مع ما قدر له من هذه السيرورة والانتشار في الأقطار بعثني على ما فعلت، وسأنبه بالرقم الأول على الصفحة وبالثاني على السطر منها، والله الموفق للصواب

٣٣ : ٢١ كان الذين يعبرونها ... قليلون. صوابه: قليلين

٣٥ : ١٣ صمدت لقسوة الزمان. يريد ثبتت ولم تنل منها عوادي الدهر وصروف الحدثان، وقد تكرر استعمال الصَّمْد في الكتاب بهذا المعنى وأرى أن هذا لا يكون إلا على ضرب من المجاز، فإن الصمد القصد، ولم تذكر المعاجم من معانيه ما أراد المؤلف، والتجوز فيه أن يعتبر الثابت على حوادث الدهر متعرضاً لها، قاصداً مغالبتها، استهانة وعدم مبالاة بها، وأقرب نص لهذا المعنى قول مُعاذ بن عمرو بن الجموح في قتل أبي جهل: فصمدت له حتى أمكنتني منه غِرَّة، فقد قال ابن الأثير في النهاية: أي ثبت له (وفي التاج واللسان: وثبت له) وقصدته وانتظرت غفلته

٣٥ : ٣ تحوّروا اتجاهها الطبيعي. استعمل التحوير في التغيير، وهو استعمال شائع ولكن لا يوجد هذا المعنى فيما وقفت عليه من المعاجم، فالتحوير فيها الترجيع والتبييض وتحوير الخبزة تهيئتها لوضعها في الجمر وكأن الأصل في ذلك التبييض ففيه تحويل وتبديل فتوسع فيه وأطلق على مطلق التغيير

٥٦ : ١٧ قصي بن كلاب هو الجد الخامس للنبي (صلى الله عليه وسلم): معروف أن قصياً هو الجد الرابع

٥٦ : ٢٠ دراجا. صوابه رِزاحا: تراجع سيرة ابن هشام والقاموس — ٧٦ : ١١ بحيرا (الراهب) ضبط بلفظ المصغر، والصواب: فتح بائه وكسر حائه كما نص عليه في المواهب

٩٣ : ١٤ فما هذه الكواكب إلا أفلاكا: تكرر مثل هذا وهو إعمال ما مع انتقاض النفي بإلا، والواجب في هذه الحالة رفع الجزأين — ١٠٣ : ٧ عبيدة بن الجراح. ظاهر أن هذا خطأ مطبعي صوابه: أبو عبيدة، وقد ورد على الصحة فيما بعد

١٠٤ : ٥ إساف منعه من الصرف، ولا وجه فيما أعلم لذلك، فالواجب كتابته إسافاً — ١٠٩ : ٦ فوقف باهتاً. يقول صاحب القاموس: هو مبهوت، لا باهت ولا بهيت

١٠٩ : ١، ٢ لخير له أن يموت مؤمناً ... على أن يخذله؛ الصواب: من أن يخذله، فإن خيرا هنا أفعل تفضيل وهو إنما يقرن بمن، وقد يكون وجه ما هنا أن يضمن خير معنى مفضَّل وهو بعيد — ١١٤ : ١٥ بنو عبدالمطلب. صوابه: بنو المطلب

١١٥ : ١٥ وإن كان هذا الذي يأتيك رأياً تراه. صوابه: رَئِيّاً كما في السير، وقد قال السهيلي الرئي فعيل بمعنى مفعول، ولا يكون إلا من الجن — ١٢١ : ٢٠ نعيم بن عبدالله؛ ضبط بفتح النون وصوابه ضم النون، فإنه نعيم النحام وقد ضبطه النووي في التهذيب كما ذكرت — ١٣٦ : ٤ مبيعة. الظاهر ضبطها بفتح الياء على مَفْعَلة وقد ضبطها السهيلي بزنة معيشة

١٤٦ : شعاب الجبل. الذي في السير أن الاحتماء كان في شعب بني هاشم، والذي يظهر أنه كان محلة في مكة وفي الزرقاني على المواهب أن الشعب كان لهاشم فقسمه عبد المطلب بين بنيه حين ضعف بصره — ١٤٧ : ١٢ أبي النجترى. صوابه: أبو البختري، وفي السطر ١٨ أبي البختري

١٤٨ : ٣ يتصالح وقريشاً، نصب قريشاً على أنه مفعول معه ومثل هذا لا يجيزه النحاة، فالواجب يتصالح هو وقريش

١٥١ : ٢٠ تحديق ابنا ربيعة. صوابه: ابني ربيعة

١٦٦ : ٨ عبد الله بن محمد. كأن هذا سبق قلم، والأصل عبدالله بن أبي وهو ابن سلول — ١٦٦ : ١٢ إن نبياً مبعوثاً الأظهر

مبعوث بالرفع كما فى السير ، فان الاخبار ببعثته مقصود

١٦٧ : ٣ وإن غشى . ضبط بفتح الغين والشين المثقلة ، والصواب كسر الشين ليكون على زنة رضى

١٦٩ : ٨ مسلموه وخاذلوه . صوابه مسلميه وخاذليه

« : ٢٢ إنا بيننا . صوابه : إن بيننا — ١٧٠ : ٩ نهكة الأموال . ضبط بالتحريك والذى فى القاموس بسكون الهاء وإن كان يجوز فتحها بوجه عام — ١٧٦ : ١ برده . صوابه ببرده

١٧٨ : ٧ فاذا عبد الله بن أبى بكر من عندهما إلى مكة . سقط هنا لفظ والأصل : فاذا عبد الله بن أبى بكر غدا من عندهما كما فى سيرة ابن هشام — ١٧٩ : ١٧ فقد أقبل على قريش رجل . قضية هذا أن الاخبار كان لقريش وأن سراقة كان حاضراً بينهم والذى فى السير أن ذلك كان فى نادى بنى مدلج قوم سراقة

١٨٠ : ٢٠ فيه أن بريدة جاء يحييهما ، والذى فى الزرقانى نقلا عن البيهقى أن بريدة جاء طامعاً فيما طمع فيه سراقة فانتهى الأمر باسلامه — ١٨١ : ٨ فبلغ نبأهما سعد . الصواب : فى الرسم نبؤهما إذ هو فاعل بلغ فهو مرفوع — ١٩٦ : ١٩ نخماً . الذى فى المعاجم نخماً — ١٩٧ : ٢٢ وهذا هو أقوى من هؤلاء . قد يكون الصواب فى هذا الأسلوب : وهاهوذا أقوى من هؤلاء

٢٠٤ : ٧ مكان حجيجهم . الحجيج جمع الحاج ولا معنى له هنا فالأولى مكان حجهم — ٢١٤ : ٤ عمر بن الحضرمى . صوابه عمرو — ٢١٥ : ٤ الحكم بن كيثان . صوابه كيسان

٢١٨ : ٤ تهرق الدماء . صوابه تهريق الدماء

٢٢١ : ٣ كشد الجهنى : الذى فى الاصابة كسد

٢٢٢ : ١٦ أبا لهب . صوابه أبو لهب — ٢٢٣ : ٥ مرثد ابن مرثد . صوابه مرثد بن أبى مرثد — ٢٢٣ : ١٠ عرق الظبية . ضبط بفتح الظاء وفى القاموس : عرق الظبية بالضم

٢٢٤ : ٢ المقداد بن عمر . صوابه عمرو

٢٢٨ : ١٣ عُمَراه . الصواب عَمْراه

٢٤١ : ٧ العاص . صوابه أبو العاص

٢٥٢ : ١٣ على . صوابه عليًّا — ٢٥٥ : ٩ أبو كعب . صوابه أبى بن كعب وقد كان من كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام

٢٦٠ : ١٩ يخمش الناس . الرواية يحمس أو يحمش بالحاء المهملة فيهما وإن تبع المؤلف فى ذلك طبعة وستنفلد

٢٧٨ : ٨ أبا دجانة . صوابه أبو دجانة — ٢٨٣ : ٩ يسار قد يكون صوابه ميسرة وهو غلام خديجة عليها الرضوان

٢٨٨ : ١ ابنتا وزيريه . صوابه ابنتى وزيريه

٣٠٦ : ١٢ النضرى . ضبط بسكون الضاد والصواب فتحها إذ هو نسبة إلى النضير — ٣٣٥ : ١ أذن محمد فى الناس بالحج . الأولى التعبير فى هذا المقام بالعمرة فان الذى وقع الأحرام بالعمرة والعمرة قد تسمى الحج الأصغر ولكن الحج إذا أطلق انصرف إلى مايقابلها — ٣٧٥ : ٢ هرقلا . صوابه هرقل لمنعه من الصرف

٣٧٧ : ٩ ثابت بن أرقم . صوابه أقرم وقد تبع المؤلف نسخة وستنفلد — ٣٨٦ : ١٢ إذ . صوابه إذا

٣٨٦ : ٢٢ حكيم بن حكيم . صوابه حكيم بن حزام

٣٦٠ : ٢٠ سلام بنى مشكم . صوابه سلام بن مشكم

٣٦٣ : ١١ بازان . يكتب فى الكتب العربية باذام

٣٨٧ : ١ عسكر . صوابه عسكرا — ٣٩٥ : ١٣ قبيساً . صوابه أبا قبيس — ٣٩٥ : ٢٢ جذيمة . ضبط بصيغة المصغر والصواب فتح الجيم وكسر الذال كما فى الزرقانى على المواهب

٤٠١ : ٣ بدأت محمد . صوابه بدأ محمد

٤٠٨ : ٢٢ فى الملالة . الرواية اللماعة . وهى فى الأصل نبات ناعم فى أول ما ينبت — ٤١٠ : أسيد والد عتاب ضبط مصغراً والصواب ضبطه كأمير — ٤١٤ : ١٥ أأتمره . كذا رسم وقد يكون الصواب آتمره على قاعدة الابدال

٤٢٤ : ٥ فيه أن زكاة العشر تدفع من الابل والأموال وإنما يدفع العشر عن بعض الزروع فأما الابل فلها مقادير محدودة فى الفقه غير العشر — ٤٢٦ : ٢٣ ضبط فيها سلمة بفتح اللام والصواب كسرها وهم بطن من الأنصار

٤٣٦ : ٢٠ عمان . ضبط بتشديد الميم والذى فى الجنوب عمان على زنة غراب ، فأما عمّان بتشديد الميم فهى بالبلقاء بأطراف الشام — ٤٦٧ : ٢١ زيد . صوابه أسامة بن زيد كما فى السطر قبله

وإنى أختم كتابتى باعجابى بالكتاب وتحيتى لمؤلفه المغلم ؟

محمد على النجار

فى يومى ٢٣ و ٢٤ يونيو سنة ١٩٣٥ من الساعة ٨ صباحاً واليوم التالى بناحية قصر هور مركز ملوى وزمامها سبباع ٦ ط من ٢٤ ط فى ماكينة ارتوازى وحصة ٣ ط من ٢٤ ط فى ماكينة ارتوازى أخرى ملك بكرى متولى على من قصر هور نفاذاً لحكم نمرة ٨٩ سنة ١٩٣٥ ملوى وفاء لمبلغ ٦٫٣٢ قرش صاغ كطلب فرجانى تونى من قصر هور مركز ملوى فعلى راغب الشراء الحضور